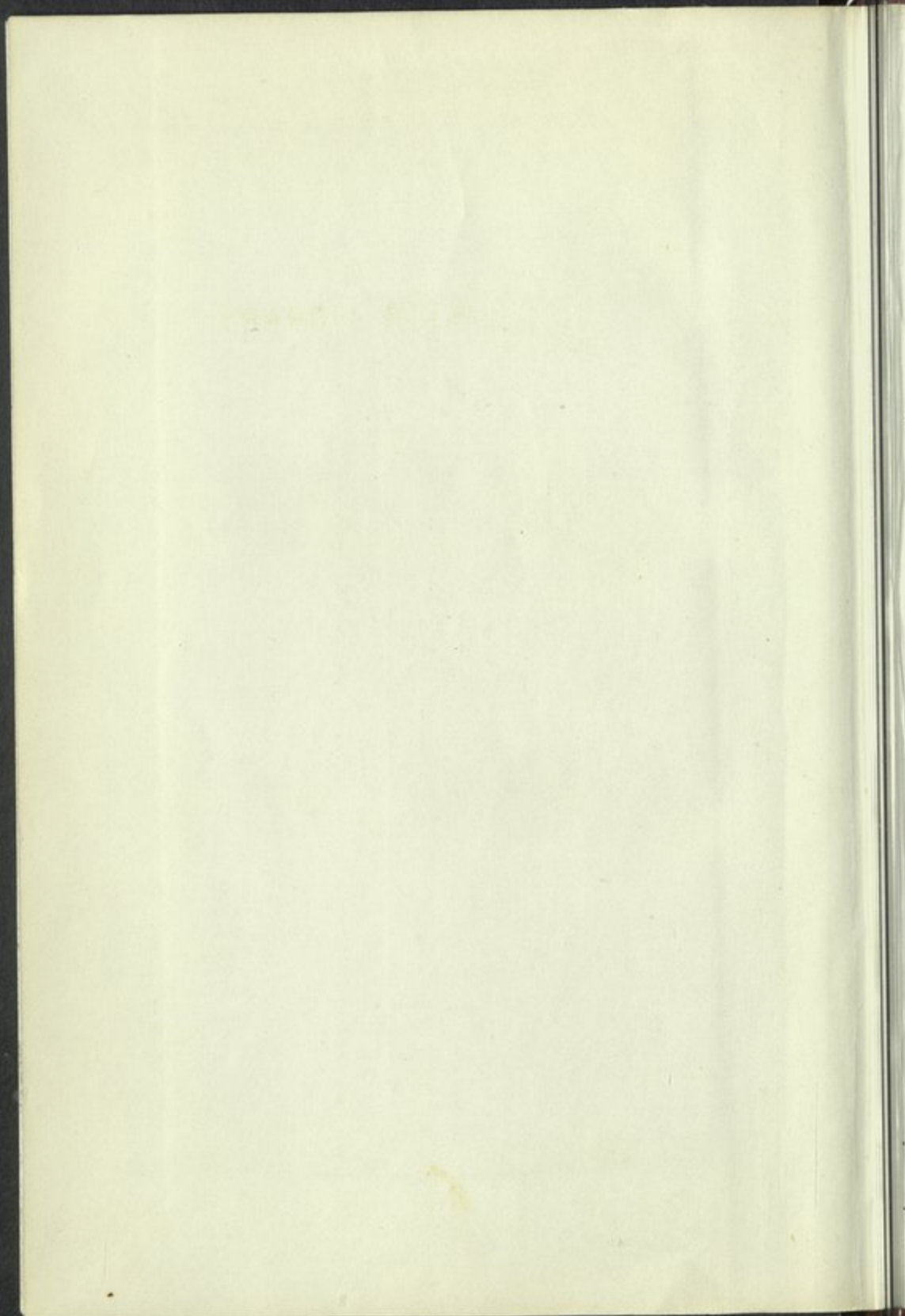
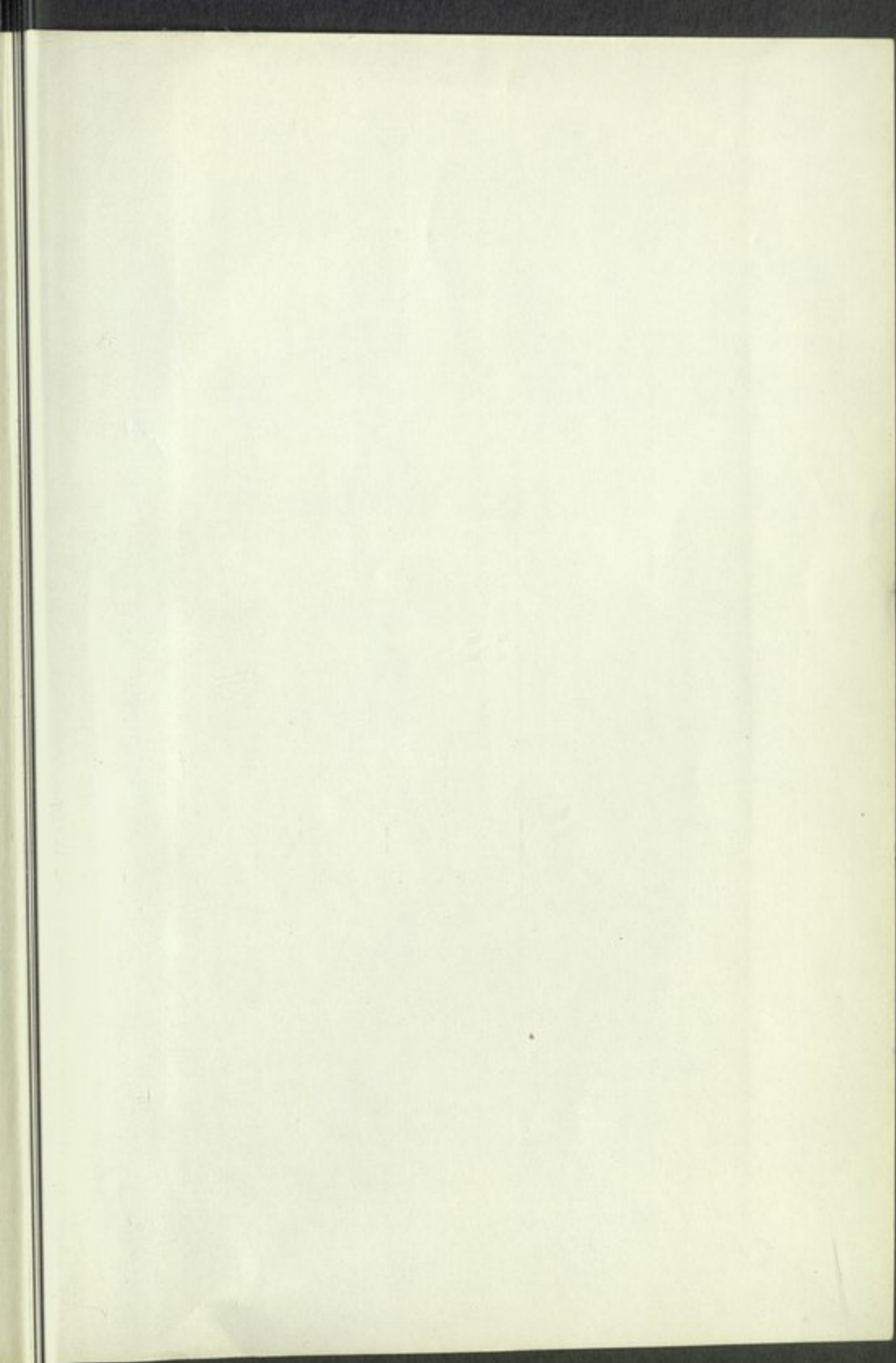


A. U. B. LIBRARY

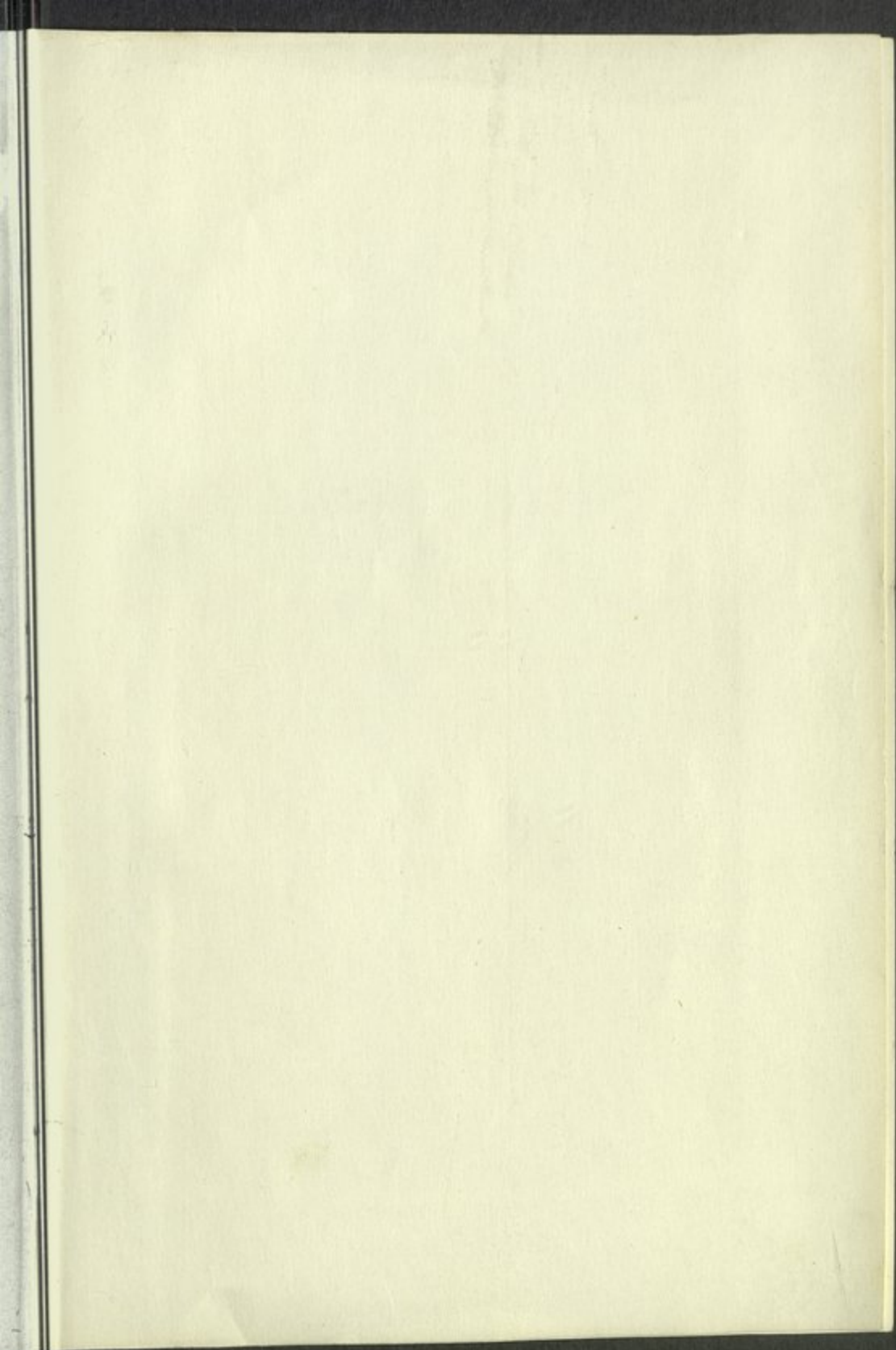
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT







NO. 1



توفيق الحكيم

892.73

Hal38ywaA

يَوْمَاتِي أَنَا فِي الْإِرْيَافِ

[الطبعة الثانية]

59249

القاهرة

مطبعة مكتبة الأنجلو المصرية والبريد والبريد

١٩٣٧

825.15

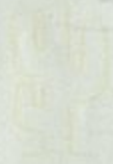
Ms. A. 1527

كتاب الفقه

825.15

Ms. A. 1527

كتاب الفقه



[فقه الفقه]

825.15

كتاب الفقه

كتاب الفقه

825.15

١١ أكتوبر سنة ...

(آويت إلى فراشي البارحة مبكراً) فلقد شعرت
بالتهاب الحلق وهو مرض يزورني الآن من حين إلى
حين . فعصبت على رقبتى خرقه من الصوف ، وعمرت
بقطع من الجبن العتيق مصايد الفيران الثلاث ، ونصبتهـا
حول سريري كما تنصب الألغام الواقعة حول سفينة من
سفن الصليب الأحمر (وأطفأت مصباح النفط ،
وأغمضت عيني وأنا أسأل الله أن ينيم الغرائز البشرية
في هذا « المركز » بضع ساعات ، فلا تحدث جناية
تستوجب قيامي ليلاً وأنا على هذه الحال) فلم أكد
أضع رأسي على المخدة حتى كنت حجباً ملقى ، إلى أن
(حركني صوت الخفير يضرب الباب ضرباً شديداً ،
وينادي خادمي صائحاً : « اصح يا دسوقي ! » ، فعلمت
أن جناية وقعت) وأن الغرائز لم تتم لأنني أردت أنا أن
أنام . (فنهضت لوقتي وأشعلت المصباح ، ودخل على
خادمي يفرك عينيه يد ، ويقدم إلى بالأخرى (إشارة

تلفونية) ، فأدנית الورقة من الضوء وقرأت : « الليلة ؛
الساعة ٨ مساء ، بينما كان المدعو قر الدولة علوان ماشياً
على الجسر بالقرب من « دابر » الناحية أطلق عليه عيار
نارى من زراعة قصب ، والفاعل مجهول ، وبسؤال
المصاب لم يعط منطقاً ، وحالته سيئة ، لزم الإخطار »
« العمدة »

فقلت فى نفسى : لا بأس ، تلك حادثة بسيطة
تستغرق منى على الأكثر ساعتين ؛ فالضارب مجهول ،
والمضروب لا يتكلم ولا يثرثر ، والشهود ولا ريب :
الخفير النظامى الذى سمع صوت العيار فذهب إليه خائفاً
متباطئاً ؛ فلم يجد بالطبع أحداً فى انتظاره غير الجثة
الطريحة ، والعمدة الذى سيزعم لى حالفاً بالطلاق أن
الجانى ليس من أهل الناحية ، ثم أهل المجنى عليه الذين
سيكتمون عنى كل شئ ليثأروا لأنفسهم بأيديهم .
فسألت خادى عن الساعة وكتبت فى ذيل الورقة :
« وردت الساعة العاشرة ، وقائمون لضبط الواقعة » ،

« قليلا » : تأنى . وسفانا فيه قنونا (تأنى)

ليشله نالول قنونا رة وسفانا نالول لينا د لسعد قنونا

ليد ميلد رة لينا « راء » نيه بيقال سجان رة

بالسعد د راء رة لينا د بسعة قنونا نيه رة لينا

(رة لينا رة لينا د قنونا رة لينا د لقنونه لينا رة لينا)

« قنونا »

قنونا قنونا رة لينا : رة لينا رة لينا

د راء رة لينا : رة لينا رة لينا

سبب لينا رة لينا د رة لينا رة لينا

لقنونا رة لينا رة لينا رة لينا

قنونا رة لينا رة لينا رة لينا

نأ رة لينا رة لينا رة لينا

رنا رة لينا رة لينا رة لينا

رنا رة لينا رة لينا رة لينا

رنا رة لينا رة لينا رة لينا

رنا رة لينا رة لينا رة لينا

(وقت من فوري إلى ثيابي فارتديتها على عجل ، كما يصنع رجال المطافيء ، وأرسلت في طلب كاتب التحقيق وسيارة النيابة ، وأوفدت من يوقف مساعدى الجديد) وهو شاب رقيق الحاشية ، حديث عهد بالعمل ، كان قد أوصانى أن أستصحبه فى الوقائع ليكتسب الخبرة والمران (ولم ألبث أن سمعت يبابى بوق سيارة المركز « البوكس فورد » ، بها المأمور ، ومعاون الإدارة ، وبعض الجنود . فنزلت إليهم فوجدت كل شىء قد أعد ولا ينقصنا إلا كاتب التحقيق) ، فلم أعجب . لأنى ما أبطأت يوماً فى القيام إلى واقعة إلا كان السبب كاتب التحقيق ، فى أى بلد كان ، وفى أى مركز .

(التفت إلى الخفير وقلت : « أنت متأكد أنك ناديت سعيد أفندى ؟ » فسمعت فى الظلام صوت الحذاء الضخم يضرب الأرض ، ولحت يداً ترتفع بالتحية العسكرية فوق (اللبدة) الطويلة ذات الرقعة النحاسية ، وفقاً يتحرك تحت شارب أسود كبير كأنه ذنب القط :

« لبس القميص قدامى يا سعادة البك ! » . ورأينا أن
ننطلق بسياراتنا فنمر بمنزل الكاتب فنستصحبه .
فركبت أنا ومساعدى والمأمور سيارة النيابة حتى بلغنا
منزلاً قديماً فى طرف البلدة . فصاح الخفير وكان قد
تعلق بسلم السيارة ليدلنا على الطريق : « إنزل يا سعيد
أفندى . » فأطل الكاتب من نافذة قصية وهو فى
جلباب النوم : « حادثة ؟ » فصاح الخفير : « حادثة ضرب
نار » . وما أشعر عندئذ إلا بيد المأمور قد خرجت من
نافذة السيارة ونزلت على قفا الخفير : « يا خفير يا ابن ..
لبس القميص قدامك يا ابن ال ... » . « وحياة رأس
سعادة البك كان لابسه ... » . ولم أَر ضرورة للتحقيق
فى هذه المسألة ، فالأمر لا يخرج عن اثنتين : إما أن
الخفير لا يعرف القميص من اللباس وهو شئ غير
مستغرب ، وإما أن سعيد أفندى قد عاد فخلع قميصه
ونام من جديد ، وهو شئ أيضاً غير مستغرب .
وما دمت أنا وحدى المسئول رسمياً عن التأخير ، فلا

تدري العلى

نفع إذن من صياحي مع سعيد أفندي غير تصديق رأسي ،
وأنا أحوج الناس إلى الراحة الليلة ، وإلى توفير الجهد
والكلام للقضية الحقيقية التي من أجلها نتجشم . ولم
يلبث الفتور أن دب في أعضائي ، فأسندت رأسي إلى
ركن السيارة وقلت لمن معي : « محل الحادث على بعد
ثلاثين كيلومتراً ، فلا بأس من أن أنعس مسافة الطريق »
وأغمضت عيني ، وتحركت سيارتنا وخلفها « البوكس
فورد » وبه الكاتب والمعاون والباشجاويش والعساكر .
وما كدنا نخرج إلى الطريق الزراعية حتى سمعنا صوت
غناء في جوف الليل ، فأخرج المأمور رأسه من النافذة
في الحال وصاح : يا حضرة معاون ! نسينا الشيخ عصفور .
ووقفت القافلة ؛ وإذا الصوت يخرج واضحاً من دغل
« بوص » على حافة غيط :

... ورمش عين الحبيبة يفرش على فدان ...

فأسرع معاون منادياً : « اطلع يا شيخ عصفور .

حادثه ! » فظهر ذلك الرجل العجيب الذي يهيم على وجهه

بالليل والنهار ، لا يعرف النوم ، يغنى عين الأغنية ،
ويلفظ كلمات ، ويلقى بتنبؤات ، يصنى إليها الناس ؛
ذلك الرجل الذى لا يفرحه شئ مثل خروجه إلى
الحوادث مع النياحة والبوليس ؛ فهو يسمع عن بعد
بوق « البوكس فوررد » ويتبعه أينما ذهب كالكلب
الذى يتبع سيده إلى الصيد . لماذا كل هذا ؟ طالما سألت
نفسى : ألا يكون لهذا الرجل سر ؟ . ودنا الرجل من
« البوكس » قائلاً فى شبه احتجاج :

— كنتم طالعين من غيرى ... ؟

فأجابه الباشجاويش باسمًا :

— أبدأ ! لو كنا نعرف عنوانك لبلغناك الإشارة !

فقال الرجل :

— طيب . هات سيجارة !

فغمزه الباشجاويش سريعاً وقال له فى صوت خافض :

— اسكت ، يسمعك البك المأمور .

فقال الشيخ عصفور :

— هات سيجارة يا حضرة الباشجاويش ، لأنى

أنا الليلة « باشخرمان » !

وصعد الرجل إلى « البوكس فورد » كأنه يصعد
إلى « رولز رويس » بمد أن انتزع من الدغل عوداً
أخضر حمله في يده كالصولجان . وانطلقت السيارتان
بين المزارع وقد نامت الطبيعة وسكنت الأصوات ،
إلا من نقيق الضفادع ، وهفيف الحشرات ، وتغريد
الشيخ عصفور المتصاعد من جوف « البوكس » . وقد
أغفيت أنا أيضاً إغفاءً التى اعتدتها كلما ركبت إلى
واقعة ، إغفاءة متقطعة لا تمنعنى أحياناً من سماع ما يدور
حولى من الكلام . وكان مساعدى إلى يسارى متيقظاً
يبدو عليه العجب ويريد أن يسأل عن كل شىء فيمنعه
الخوف من إزعاجى . فالتفت إلى المأمور بجواره ؛
وسرعان ما اشتبكنا فى حديث طويل لم أع منه شيئاً
كثيراً ، فهو وحده الذى أنامنى النوم العميق طول
الطريق ، وانتهت على وقوف السيارة بعد زمن ليس

رثا د رثاء لبعث لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة

١ « ناله رثاء لبااة » قليل لا

معنى رثاء لبااة « رثاء لبااة » رثاء لبااة

أمره رثاء لبااة « رثاء لبااة » رثاء لبااة

رثاء لبااة رثاء لبااة . رثاء لبااة رثاء لبااة

رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة

رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة

رثاء لبااة « رثاء لبااة » رثاء لبااة رثاء لبااة

رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة

رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة

رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة

رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة

رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة

رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة

رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة

رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة رثاء لبااة

بالقصير ، ففتحت عيني فإذا نحن أمام ترعة وإذا
« المعدية » في انتظارنا انتقلنا إلى الضفة الأخرى .
فزلنا جميعاً وامتلاً بنا القارب كأننا غرق في زورق
النجاة ، أو « أزيار » من الفخار في مركب بالصعيد .
وسارت بنا « المعدية » حتى بلغت الشاطئ الآخر
ونحن لا نسمع في سكون الليل العميق غير سلاسلها
تضرب الماء ، ولا نرى من حلك الظلام شيئاً . ولم
تكد تظاً أقدامنا البر حتى سمعنا صهيل خيل ؛ وإذا
أمامنا « الركائب » من خيول « نقطة البوليس » وحمير
العمدة ، مبيأة لملنا إلى مكان الحادث . وآه من الخيول !
لقد تقدم إلى أحد الجنود بجواد مطهم إجلالاً لقدرى .
ورأيت هذا الحصان يتبختر ويفحص الأرض بحوافره ،
ولا يصبر على الهدوء حتى أعتلى ظهره ، فعلمت أنى
لا محالة واقع على الأرض . ولطالما كدت أقع من فوق
تلك الظهور اللاعبة التى لا يحكمها غير فارس بارع ،
لا راكب نائم . ولطالما فضلت عليها الحمير الهادئة ؛

غير أنى نظرت خلفي فإذا أكابر القافلة قد امتطوا الخيول
ولم تبق الحمير إلا للأوباش؛ ففجئت أن أنزل عن جوادى
وأن أحاذى فى المرتبة الشيخ عصفور، وقد اعتلى حماراً
أشهب وخزه بصولجانه الأخضر فانطلق به فى ذيل
الجياد. أسلمت أمرى لله، وسرت فى المقدمة قائداً مترنحاً
من الخوف والتعب، إلى أن ظفر النوم بحفونى فلم أشعر
بشئ. وبجأة وجدت جسمى قد طار من فوق الجواد
ووقع على عنقه! فقد قفز الحصان فى قناة ماء قفزة شديدة
خلعتنى من فوق ظهره خلماً. فقلت: « ما حسبناه
لقيناه! » وصحت بالخفير الملحق بركابى: « الحصان يا خفير!
الحصان! ». فوقف الركب واختل النظام؛ وأوسع
المأمور رجاله شتماً وصفماً وأمرأاً ونهياً وأعادونى إلى ظهر
جوادى وأنا أقول لأدارى خجلى: يظهر أن الحصان نام
وهو ماش، أو خاف من ثعلب فارّ فجميع. على كل حال
أمسك اللجام يا خفير. فأمسك خفيران اللجام ومشيا بى
رويداً رويداً مشية هادئة متزنة أعادت إلى نفسى هجوعها

فلم أصبح إلا في مكان الواقعة... وأبصرت ضوء المصاييح
والمشاعل في أيدي الأهالي المجتمعين حول المصاب فطار
التعب من رأسي كما تطير البوم من وكرها على الضوء
المقرب. وأسرعت في النزول من فوق صهوة الجواد
وشققت طريقاً بين الناس الذين هتفوا في صوت خافت
« النياية حضرت ». ودنوت من ذلك الجسم الممدد على
الأرض، وحدثت في ذلك الوجه المعفر بالتراب والدم،
فعلمت أنه حقيقة لن يتكلم. وقد وجدت ملاحظ
« النقطة » غارقاً لأذنيه في تحرير « محضره » الذي
سأضرب به عرض الحائط؛ فالنياية متى حضرت بحثت
كل شيء من جديد. وباشرنا التحقيق مفتحين بمحضر
المعينة، فأمسك الكاتب ورقة وقلماً ودنا مني فأمليت
عليه الديباجة المعروفة: « نحن فلان وكيل النياية ومعنا
فلان كاتب التحقيق. الليلة الساعة كذا وردت إلينا
الإشارة التليفونية رقم كذا ونصها كذا. وعليه قنا
بسيارة إلى ناحية كذا، فبلغناها ساعة افتتاح هذا

المحضر الخ الخ . « ذلك أنى أحب دائماً أن أعنى بتحرير
 « محضري » وأن أجعله مرتباً ترتيباً منطقياً . والمحضر
 هو كل شيء في نظر أولى الأمر . وهو وحده الشهادة
 الناطقة للنائب بالدقة والبراعة . أما ضبط الجاني فأمر
 لا يسأل عنه أحد . ويلى « الديباجة » وصف الإصابة
 والملابس والموضع الذى وجد فيه المجنى عليه . فاقصرنا .
 وأمليت على الكاتب أوصاف ذلك الجرح النارى الذى
 رأينا ثقبه المتسع فى كتف المصاب . وقد حدث فيما أرى
 من « حشار » بندقية أطلقت على بعد غير كبير فهتكت
 اللحم وأنزفت الدم . وقد وصفنا الوجه خير وصف ،
 وهو لرجل قارب الأربعين وسيم قسيم ، تلك الوسامة
 الريفية بما فيها من رجولة وصحة وقوة . ولم يفتنا ذكر
 وشم المصفور المرسوم فى أعلى صدغه ، ولا لون شارب
 الضارب إلى الصفرة ، والثياب أحصيناهما من « الدفية »
 والجلباب الغزلى وكيس النقود الذى لم يمس ، إلى السروال
 « البقطة » الأبيض ذى التكة الحمراء . نعم ، لم ننس تكة

اللباس ونوع نسيجها ، فإن ذكر التفاصيل دليل على الدقة
والعناية . هكذا تعلمنا التحقيق كأبراً عن كابر ! وأذكر
وجعلت أصف سرواله وتكتته و « بلغته » و « لبدته » ،
فلما فرغت انحنيت على المصاب أسأله عن المعتدى عليه ،
فإذا بالمصاب قد توفي . ولم ننس وصف المكان ، وهو
طريق ضيق بين مزارع قصب على الجانبين . ولا عجب ،
فإن لكل نوع من الزرع محصوله من الجرائم : فمع
ارتفاع الذرة والقصب يبدأ موسم « القتل بالعيار » ،
ومع اصفرار القمح والشعير يظهر الحريق « بالجاز
والقوالح » ، ومع اخضرار القطن يكثر « التقليع
والإتلاف » . وانهينا من الجريح المحتضر ، ولم يعد يهمنا
أمره بعد أن ملأنا « محضرنا » بأوصافه ؛ فتركناه في دمه
تحت رعاية ضابط « النقطة » حتى يأتي لجمه إلى المستشفى
رجال الأسعاف . وذهبنا إلى « دوار » العمدة حيث
كانت في انتظارنا القهوة . وآه من قهوة « العمدة » !

حضره الربيع
خاتمة
هذا المحقق
محمّد

إني أسميها دائماً «الكوروفرم»؛ فما من مرة إلا أحدث
عندي عكس المقصود من شربها ! ولست أدري العلة ؛
غير أني سمعت ذات ليلة عمدة من هؤلاء العمدة يصيح
في تابعه أمامنا : « هات يا ولد قهوة بن » ، ولم أفهم وقتذاك
معنى لأضافة لفظ « البن » إلى « القهوة » ؟ أتري النص
على البن « صراحة » جاء من قبيل التأكيد ، أم على سبيل
التشريف والتكريم ؟ لست أعلم . إنما الذي علمته يومئذ
واستوثقت منه أن هذا « اللفظ » الأخير وإن دخل في
تركيب الجملة ، لم يدخل في تركيب القهوة . وجلسنا في
« المنطرة » على فرش من قطيفة ذهب وبرها ولونها ؛
ووضع الكاتب أوراقه على خوان أعرج ، تعلوه رخامة
مكسورة ، ونشر المحضر « تحت » مصباح كبير له دوى
وطنين قد جمع حوله هوام الليل ؛ وصحت أطلب
الشهود . فصاح المأمور لصياحي : « اجمع الشهود
يا حضرة المعاون » . وارتنى على مقعد رحب في ركن
الحجرة ارتقاء أدركت معها أن ليس بعدها غير نعاس

وغطيظ ، وجلس مساعدي على مقربة مني يرمق ما يجري بعيون فاترة تنم عن كسل بدأ يداعبها مداعبة النسيم للاوراق . وجاءوني بالخفير النظامي الذي سمع صوت العيار وهرع إلى مكان الجريمة أول من هرع . فلم يخيب ظني في شيء إلا في قوله إنه سمع عيارين ، مع أن الوارد في « الإشارة » عيار واحد ، والإصابة من عيار واحد ، وأقوال الحاضرين متفقة على أنه لم يدو في القرية سوى عيار واحد . ما حظ هذا الرجل من الكذب ؟ لست أدري ، وتركنا جوهر القضية وانصرفنا إلى مسألة العيار والعيارين . فسألنا الجميع من جديد فأجابوا مجمعين : عيار واحد يا سعادة البك

— سمعت يا خفير ...

— عيارين يا سعادة البك .

— متأكد ؟

— عيارين يا سعادة البك .

هنا ثقل التحقيق وسماجة المهنة . أفهم أن يكذب

المتهم ، فهو حقه الطبيعي ؛ وما أطمع قط أن يصدّقني
متهم . ولكن الشاهد ، ماذا يحمله على أن يلقى على وجه
الحقيقة كلفاً من التشكيك والتناقض ، لوجه الله تعالى . ؟
ومضى التحقيق في شعاب مظلمة لا أمل معها في
الوصول إلى شيء . فما من أحد يعرف الجاني ؛ وما من
أحد يتهم أحداً ؛ وما من أهل للمضروب في هذا البلد
غير أم عجوز مريضة كسيحة ضعيفة البصر لا تستطيع
الكلام ، وغير زوجة ماتت منذ عامين وتركت طفلاً
صغيراً لا يصلح للوقوف أمامنا في موقف السؤال .
وما من أحد يدلى بتعليل معقول أو غير معقول لهذا
الحادث . وما من أحد يعرف أن بين المصاب وبين
إنسان على وجه البسيطة عداوة أدت إلى ارتكاب الجريمة .
أهبط إذن شيطان من الجحيم فأطلق على الرجل العيار ؟
لا أحد يدري . لقد وجدت ما حسبت . إني منذ قرأت
« الإشارة » أدركت أن القضية ميتة . وهل أستطيع أنا
« بتحقيق » أن أبعث الحياة فيما لا حياة فيه ؟ إن لم يقبل

على الشهود بالصدق ، وتعاوننى الأهالى بالرغبة والإخلاص
فأى « محضر » فى الوجود يوصلنى إلى التشرف مرة
بمعرفة جان من الجناة ؟ وجاءت نوبة العمدة فى الشهادة ،
وحلف اليمين وبدأنا نلقى تلك الأسئلة التى لا تقدم
ولا تؤخر ... وإذا بغطيط يعلو من ركن الحجرة ويغطى
على التحقيق . فالتفت فإذا المأمور قد « كوع » على
« الكنبه » ؛ ورأى العمدة هذه الالتفاتة منى ، فاستأذنى
واتجه إلى المأمور وأيقظه فى لطف :

— تفضل يا بك على السرير فى القاعة .

وقاده فى أدب ولطف إلى حجرة أخرى داخلية .
ثم عاد أمامى يدلى بما عنده من أقوال رسمية « تجارية »
قد دمغت بطابع الوظيفة ؛ ألفاظها وعباراتها تكاد
لا تتغير بين عمدة وآخر ، وهى على كل حال لا تنفع
ولا تضر ، وتلقى على نار الحادث برداً وسلاماً ، ولم يكد
حضرة العمدة يوقع بإمضائه الذى يضاهى نبش الدجاج
تحت أقواله ، ويتنحى عن موقف الشهادة ، حتى فتح

باب الحجرة الداخلية وظهر المأمور وهو يحك جسمه بأظافره ويلتقط بأصابعه أشياء على ملابسه ينفضها عنه ، وهو يرغى ويزبد :

— سرير ! أعوذ بالله ! انت عمدة أنت ... ؟

فعلت ما حدث بالتمام . وضحكت في نفسى . وتظاهرت بالانهماك فى عملى فلم أرفع وجهى عن الأوراق . وجلس المأمور فى مقعده جلسة من قد ذهب النوم من عينيه ذهاباً لا رجعة له تلك الليلة . ولم يلبث أن صاح فى العمدة :

— هات قهوة والسلام . اعملها موزونة وحياة عينيك .

ثم وجه إلى الكلام كأنه يريد أن يسلى سهره :
— القضية على الحبل ؟

وهو يرمى بهذا الاصطلاح إلى استطلاع حال القضية ومدى نجاحها النجاح الذى يؤهلها للذهاب برأس المتهم

إلى المشنقة . فأجبتته في صوت غير مرتفع دون أن أنظر إليه ، وكأني أخطب نفسي :

— القضية على السرير !

وفجأة نهض المأمور عن مكانه كأنما قد تذكر مفتاح السر وصاح :

— يا شيخ عصفور !

فبرز رأس الرجل العجيب من خلف كرسي من القش بركن مظلم من أركان القاعة ونهض بصولجانه الأخضر كأنه يقول : « لييك » .

— رأيك يا شيخ عصفور ؟

فلم أطق صبراً . ما كان ينقصنا حقاً إلا أن نستشير المعتوهين في قضايا الجنايات ! فنظرت إلى المأمور نظرة ذات معنى ، فاقترب مني وقال :

— الشيخ عصفور كله بركة . مرة دلنا على بندقية

متهم مدفونة في قاع التربة !

— يا حضرة المأمور بدلاً من سؤال الشيخ عصفور

والشيخ طرطور كلف خاطرك وانتقل مع المعاون
والعساكر وقتشوا دور المشتبه فيهم من الأهالي .

فصاح المأمور :

— يا حضرة المعاون !

فأقبل المعاون من خارج الحجرة وقد سمع قولي ،
وقدم إلى رئيسه « محضر تفتيش من قسيمة واحدة » :
— أجرينا التفتيش يا فندم !

فلم ينظر فيه المأمور وناولني إياه ، فجريت يبصرى على
الكلام الطويل العريض وانتهيت إلى العبارة المألوفة :
« ... ولم نعثر على شيء من الأسلحة أو المنوعات .. »
فأشرت في ذيل الورقة : « يرفق بالمحضر » ،
ووضعت رأسي في كفي أفكر فيما ينبغي عمله في هذه
القضية ، وفيمن ينبغي سؤلهم حتى نكمل محضرنا عشرين
صفحة على الأقل . ذلك أني ما زلت أذكر كلمة رئيس
النيابة يوماً لي وقد تناول محضراً في عشر صفحات :
« مخالفة ؟ جنحة ؟ » فلما أخبرته أنها قضية قتل

التدريس في الدوام

صاح دهشاً : « قضية قتل تحقق في عشر صفحات فقط
قتل ا قتل رجل ! قتل نفس آدمية في عشر صفحات !؟ »
فلما قلت له : « وإذا ضبطنا الجاني بهذه الصفحات القليلة »
لم يعبأ بقولي ومضى يزن المحضر في ميزان كفه الدقيق :
« من يصدق أن هذا محضر قتل رجل !؟ » فقلت له على
الفور : « إن شاء الله في المرة القادمة نراعى الوزن ! »
مرّ بخاطري كل هذا وأنا مطرق صامت .. وإذا
صوت الشيخ المعتوه يرتفع في القاعة منشدًا :

« فنش عن النسوان ،

تعرف سبب الأحزان ،

ورمش عين الحبيبة ،

يفرش على فدان ... »

لم أغضب على الشيخ الذي امتهن حرمة التحقيق
بهذا الغناء ، ولم أطرده خارج القاعة ، ولكنني تفكرت
قليلاً في مغزى كلامه لو أن له مغزى ينفعني كل
ما يجوز الالتفات إليه كلمة « النسوان » ، والتفیش لاعتن

المشبهوهين بل عن النسوان . أى نسوان ؟ إني لم أرقضية
خلت من النسوان مثل قضيتنا هذه . فالمضروب يعيش
وحيداً بعد أن ماتت زوجته ، ولا أحد معه غير أم عجوز
كسحاء لا ينبغي أن تحسب في النساء . لا ريب أن هذا
العصفور لا يعنى ما يقول . هذا الشيخ الأخضر من
فصيلة البيغاء لا شك ، يردد الألفاظ والأغاني دون أن
يعنى بها شيئاً من الأشياء . لكن مهلاً ! إن للمجنى عليه
طفلاً ، فهل تلك الأم المقعدة المريضة هى التى تعنى بشأنه ؟
« تعال يا عمدة ... » وألقيت على العمدة هذا السؤال .
فأجاب فى براءة الطفل وسداجه الأبله :

— الولد فى حضن البنت !

— أى بنت ؟

— البنت ، أخت المرحومة امراته .

— بنت كبيرة ؟

— « عيِّلة » .

فنظرت إلى المعاون وأمرته أن يحضر هذه البنت .

في الحال . ولم يمض قليل حتى بدت غادة في السادسة عشرة من عمرها ، لم تر عيني منذ وجودي في الريف أجمل منها وجهاً ولا أرشق قدا ؛ وقفت بعتبة الباب في لباسها الأسود الطويل كأنها دمية من الأبنوس طعمت في موضع الوجه بالعاج . وقال لها العمدة مشجعاً :

— ادخلي يا « عروسة » .

فتقدمت في حياء ، واضطربت خطواتها ، إذ لم تعرف بين يدي مَنْ من الجالسين يجب عليها الوقوف . فوجهها العمدة إلى فوقفت في وجهي ورفعت إلى رمشين . . . ولأول مرة يرتج على في « التحقيق » فلم أدر كيف أسألها ... ولم يرها الكاتب ، فقد كان موقفها خلف ظهره . فلما لحظ صمتي ظن بي تعباً ، فغمس القلم في الدواة ورفع رأسه إليها وهو يسألها :

— اسمك يا بنت ... ؟

فما إن وقع بصره عليها حتى حملق فيها ولم يعد إلى الورق . ونظرت حولى فوجدت مساعدى الناعس قد

أفاق ونشط وأخذ يرمق الصبية بعينه الواسعتين ؛
ونقلت بصرى إلى المأمور فإذا به الساعة في غير حاجة
إلى قهوة ولا إلى بن ، وزحف الشيخ عصفور حتى بلغ
موطى قدمي فأقمي كالكلب ينظر إلى الفلاحة الحسنة
فاغراً فاه . حقا إن للجمال لهيبة ... ورأيت أن أملك
سريعاً ناصية نفسي قبل أن ينكشف الأمر ، فقلت
لصاحبة الجمال وأنا أكبح عيني حتى لا أنظر إليها :

— اسمك ؟

— ريم .

لفظته في صوت ... هن نفسي كما تهز الوتر أنا مل
رقيقة ، فاشككت في أن صوتي سيتهدج إن ألقيت
عليها سؤالاً آخر ، فتريثت ؛ وبدت لي دقة الموقف
وأيقنت ببطء التحقيق إذا قدر لي أن أقف كالدائح بين
السؤال والسؤال . فاستجمعت ما بقي عندي من شتات
القوة والعزم وهجمت بأسئلة لا أنتظر الجواب عنها
إلا جملة ، وقلت لها تكلمي في كل هذا ... ولبثت

أنظر ، فعلمت منها العجب العجيب ! إنها حتى الآن
لا تعلم ما جرى للمجنى عليه ! فقد أيقظوها من النوم
الساعة وجاءوا بها أمامي دون أن يذكروا لها شيئاً ؛
ولم أشأ أن أخبرها الآن بما وقع وقد آنت منها أشياء
لا يدركها إلا مجرد الإحساس ...

سألتها : ألم يخطبها خاطب ؟ فكان الجواب : بلى ؛
آخر من تقدم إليها فتى جميل لم ترفضه ، ولكن زوج
أختها وهو في مقام وليها تردد في القبول كما تردد دائماً
في قبول الأيدي الكثيرة التي ارتفعت تدعوها كما ترتفع
أيدي المؤمنين بالدعاء ! ... « أو تحقدين عليه من أجل
هذا ؟ » . فكان الجواب كذلك : لا ، قالتها في نبرة
حارة ؛ حرارة خاصة أدركتها كذلك بإحساسى . « وهل
كان بينك وبين الفتى الخاطب اتصال ؟ » نعم لقد اجتمعنا
أمام الدار مرتين في لقاء برئ . وقد علم أنها لا تكرهه
زوجاً ، ولكنها تكره مخالفة وليها . وذلك الولي ما غايته
من رد الخاطبين والطلاب ؟ أهو غلو منه في الحرص على

هناها؟ أهو لا يجد الزوج الكفاء؟ إنها لا تعلم حقيقة سره . وإنها لتريد أن تعلم . وإن هذا ما يحيرها أحياناً ، وما يبكيها . إنها تريد أن تعلم . تعلم ماذا . . . ؟ . . . لا شيء . لا تستطيع التعبير . . . إن التعبير هبة لا يملكها كل الناس .

وبعد فالتعبير يستوجب العلم بحقيقة الشعور الرابض في أعماق النفس . . . وهذه الفتاة فيما يخيل إلى ذات نفس كدغل « البوص والقصب » لا يصل إلى قاعها من الضوء غير قطع كالدنانير تتراقص في ظلام القاع كلما تمايل القصب . . .

على أي حال قد بدأت قطع من الضوء تتساقط أيضاً بين سطور « المحضر » ، وبدأنا نضع أيدينا على عصب نابض من أعصاب القضية ، وهمت أن أطلب فنجانا آخر من القهوة وقد طاب المجلس وحل التحقيق . وإذا معاون يسأل ملاحظ النقطة وقد ظهر بالباب :
— أحضر الإسعاف وأنقل المضرروب ؟

— من زمان !

فأدركت الصبية كل شيء ، فانطلقت من فيها
صيحة كتمتها في الحال خجلاً منا ، غير أنني ما شككت
في أن لها دويّاً وانفجاراً داخل نفسها . وأردت أن
أمضى في عملي فما وجدت أمامي غير فتاة تجيبني بكلام أتر
لا شبع فيه ولا غنى . ورأيت أن أرجى التحقيق فقلت :

— استريحى يا ريم ...

ونظرت إلى المأمور :

— الأحسن نكمل التحقيق الصبح .

فأشار إلى النافذة ، فإذا النهار يدخل منها متلصصاً
وقد خدعنى عنه المصباح المضى . فاستويت على قدمي إذ
ذكرت للفور أن جلسة الجنج اليوم ، وقد فاتني أن أدبر
الأمر من الليل حتى يخلفني فيها نائب من الزملاء ؛ فلا
مفر لى إذن من العودة العاجلة حتى أحضر الجلسة
في الميعاد .

— يا حضرة المعاون ! هات البنت في «البوكس» !

وأقفلنا المحضر على أن نستأنف التحقيق بعد الجلسة
في دار النيابة . وقمنا إلى « الركائب » فامتطيناها عائدين
والشيخ عصفور خلفنا يصيح ويلوح بعوده الأخضر
في حركات الثائر المهتاج :

— هي بعينها !

والمأمور يجيبه :

— اعقل ... !

— هي بعينها ، برمشها ... عرقها ، برمشها .

— اعقل يا شيخ عصفور ، وافطن لنفسك ، تقع

من فوق الجحش !

ودب التعب في أعضائي فأنحيت على ظهر الحصان ،

ولكن نسيم الصباح الرطب كان يضرب وجهي

أضربات خفيفة كأنها لطبات مروحة في يد ماجنة ظريفة ،

فلم أفقد نشاطي وطفقت أفكر ، وإذا غناء العصفور

يرتفع بغتة شديداً كأنه شيء قد انخلع مع قلبه :

— ورمش عينها يفرش ...

ولم أسمع البقية ، بل سمعت شيئاً سقط على الأرض
فالتفتنا فألفينا الشيخ عصفور بأطواره على الأرض قد
فرش ... فوقفنا . وأسرع إليه الخفراء فحماوه إلى
حمامه ، فاستوى عليه وهو ينفذ عن جسمه التراب
صائحاً مستأنفاً :

— ... على فدان ...

وسمعت المأمور ومساعدى يضحكان ضحكا صافياً .
ثم سمعت المأمور ينتهر المعتوه قائلاً له : « افطن لنفسك .
صاحبك غرقت في الرياح من سنتين ... » ولم يكن في
عقلي وقتئذ غير صورة الفتاة في إطارها الأسود وسرها
الذى لم أنفذ إليه بعد . إن سرها هو سر القضية ، وإنى
لندفعنى إلى استجلاء الأمر رغبة لا شأن لها بالعمل . إنى
أيضاً أريد أن أعلم . وسارت القافلة حتى بلغت مصرفاً
متسعاً عميقاً زاخراً بالماء ، ركبت عليه خشبة من جذوع
النخل في عرض الذراع . وأراد الخفير أن يدفع في عجز
حصانى ليجتاز بى المصرف على هذه الخشبة التى فى

ضيق الصراط فانتبهت وصحت :

— أنت مجنون يا خفير ... أمر من هنا أنا والحصان ؟

فبدت على وجه الرجل دهشة :

— سبق لك يا سعادة البك المرور من هنا بالليل

أنت والحصان ده .

فنظرت إلى الخشبة في شبه رعب :

— أنا ؟ عدت بالليل المصرف من هنا على

الخشبة دى ؟ وكنت وقتها فوق الحصان ده ؟ مستحيل !

— الطريق واسع يا بك والحصان عاقل ...

ولم أرد أن أصغى إلى كلام الخفير أكثر من ذلك .

فإذا كانت هذه الخشبة طريقاً متسعاً في نظر هذا الرجل

فهو من غير شك سيجتاز الصراط في الآخرة راكباً

جلاً . أما عقل الحصان فإن ضمنه هو ، وهو ليس

راكبه ، فما يحملنى أنا الراكب على هذه الضمانة الخطرة ؟

وأسرعت فنزلت إلى الأرض واجتزت المصرف ماشياً

على قدمى فوق الخشبة ، معتمداً على عصاى ...

١٢ أكتوبر . . .

لما عدنا كان ميعاد الجلسة قد حان . ودنت سيارتنا
من المحكمة فشاهدنا الأهالي يبابها مكدسين كالذباب .
وكان مساعدى قد خر إلى جوارى صريع الكرى ،
ولم يهمنى أمره ، ولم يدر بخلدى قط أن أدعوه وهو على
هذه الحال من التعب إلى مشاهدة الجلسة بجوارى كما
شهد التحقيق . إنه لم يعتد بعد وصل الليل بالنهار .
وحسبه هذه السهرة الممتعة ؛ فلا ترفقن به فى أول عهده
بالخدمة . وما إن مررنا بالمحكمة حتى أمرت السائق
بالوقوف وأوصيته أن يمضى بالمساعد إلى منزله ، وحييت
المأمور ونزلت أشق طريقاً بين أكوام الرجال والنساء
والأطفال . ودخلت حجرة المداولة فوجدت القاضى فى
الانتظار . وما كدت أرى وجه القاضى حتى وجمت ؛
ففى المحكمة قاضيان يتناوبان العمل ، أحدهما يقيم فى
القاهرة ولا يأتى إلا يوم الجلسة فى أول قطار ، ويسرع
فى نظر القضايا حتى يلحق قطار الحادية عشر الذى يعود

إلى القاهرة . ومهما زادت القضايا وبلغ عددها فإن هذا
القطار لم يفت القاضى يوماً قط . أما القاضى الثانى فهو
رجل ذو وسواس ، وهو بعد يقيم مع أسرته فى دائرة
المركز ، فهو يبطل فى نظر القضايا خشية العجلة والغلط
ولعله أيضاً يريد شغل وقته وتسلية ضجره فى هذا الريف
وليس أمامه قطار يحرص على ميعاده ؛ فهو من الصباح
يجلس إلى المنصة وكأنه قطعة منها سمرت فيها فلا ينفصل
عنها إلا قبيل العصر . ويستأنف الجلسة فى أكثر
الأحيان عند المساء . وكانت تذيبنى جلسته مر العذاب ،
فهى الحبس بعينه . وكأنما قضى على أن أربط إلى منصتى
لأبدي حراكاً طول النهار ، وقد وضع حول عنق
وتحت أبطى ذلك الوسام الأحمر الأخضر كأنه الغل .
أهو انتقام الهى لهؤلاء الأبرياء الذين دفعت بهم إلى الحبس
دون أن أقصد ؟ أترى أخطاء المهنة تقع تبعاتها علينا فنُدفع
ثمناً فى الحياة دون أن نعرف ؟

وجئت لرؤية القاضى إذ أدركت أنى وقعت فى

جلسة لا ترحم بعد ليلة كلها عمل . ولست أدري ما الذى طمس ذاكرتى فحسبت خطأ أن اليوم نوبة ذلك القاضى السريع .

دخلت الجلسة ؛ وكان أول ما فعلت أن نظرت فى « الرول » فإذا أمامنا سبعون مخالفه وأربعون جنحة . عدد والحد لله كفى أن يجلسنا بلا حراك مع هذا القاضى طول اليوم . على أن القضايا دائماً عند هذا القاضى أكثر منها عند القاضى الآخر ؛ والسبب بسيط : أن القاضى الموسوس لا يحكم فى المخالفة بأكثر من غرامة عشرين قرشاً ، بينما الآخر يرفع سعر الغرامة إلى خمسين . وعلم المخالفون والمتهمون بذلك فجعلوا كل همهم الهروب من صاحب السعر المرتفع والالتجاء إلى صاحب السعر المناسب . وطالما تبرم هذا القاضى وشكا من ازدياد عمله يوماً عن يوم دون أن يدري العلة . فكنت أقول فى نفسى « إرفع أسعارك تر ما يسرك » ، وبدأ المحضر

ينادى أسماء المتهمين من ورقة في يده . وقزمان أفندى
المحضر رجل مسن أبيض الشعر والشاربين ذو منظر
وهيئة يليقان برئيس محكمة عليا ؛ وهو إذا نادى تعاظم
في حركاته وإشاراته وصوته ، والتفت إلى الحاجب
بالباب التفاتة الأمر الناهي ، فيردد الحاجب الاسم خارج
قاعة الجلسة كما تلقاه من المحضر ، ولكن في مد وغن
ونغمة كنغمة الباعة المتجولين . وقد لاحظ ذلك أحد
القضاة مرة فقال له : « أنت يا شعبان قاعد تنادى على
قضايا جنح ومخالفات ، أو على بطاطة وبلح أمهات ؟ »
فأجابه الحاجب : « جنح ومخالفات أو بلح أمهات ، كله
أكل عيش » .

ومثل أول المخالفين أمام القاضي الفارق في الأوراق
فرفع القاضي رأسه ووضع منظاره السميك على أنفه ،
وقال للمائل بين يديه :

— أنت يا رجل خالفت لأئمة السلخانات بأن
أجريت ذبح خروف خارج السلخانة .

— ياسيدي القاضى ، الخروف . . . ذبحناه ،
ولامؤاخذة ، فى ليلة حظ « عقبال عندك » بمناسبة
طهور الولد .

— غرامة عشرين « قرش » . غيره . . .
فنادى المحضر . ونادى ثم نادى . . . مخالفات
متتابعة كلها من ذلك النوع الذى مضى الحكم فيه . . .
وقد تركت القاضى يحكم وجعلت أروح عن نفسى
بمشاهدة الأهالى الحاضرين فى الجلسة . . . وقد ملأوا
المقاعد و« الدكك » وفاض فيضهم على الأرض والممرات . .
فجلسوا القرفصاء كأنهم الماشية يرفعون عيونهم الخاشعة إلى
القاضى وهو ينطق الحكم كأنه راع فى يده عصا . وضاق
ذرع القاضى بذلك اللون المتكرر من المخالفات فصاح :
— فهمونى الحكاية ! الجلسة كلها خرفان خارج
السلخانة . !

وحملق فى الناس بعينين كالحصتين خلف المنظار
الراقص على طرف أنفه ، ولم يفطن أحد ولا هو نفسه

لما في هذه العبارة من تعريض . ومضى المحضر ينادي
وقد تغير قليلاً نوع المخالفة ودخلنا في نوع جديد فقد
قال القاضى للمخالف الذى حضر :
— أنت يا رجل متهم بأنك غسلت ملابسك
في التربة .

— يا سعادة القاضى ربنا يعلى مراتبك ! تحكم على
بغرامة لأنى غسلت ملابسى ؟
— لأنك غسلتها في التربة .
— واغسلها « فين » ؟

فتردد القاضى وتفكر ولم يستطع جواباً . ذلك أنه
يعرف أن هؤلاء المساكين لا يملكون في تلك القرى
أحواضاً يصب فيها الماء المقطر الصافى من الأنابيب ،
فهم قد تركوا طول حياتهم يعيشون كالسائمة ، ومع ذلك
يطلب إليهم أن يخضعوا إلى قانون قد استورد من الخارج
على أحدث طراز ، والتفت القاضى إلى وقال :
— النيابة ...

— النياية ليس من شأنها أن تبحث أين يغسل
هذا الرجل ملابسه، ولكن ما يعينها هو تطبيق القانون!
فأشاح القاضى بوجهه عنى وأطرق قليلا وهز رأسه ثم
قال فى سرعة من يزيح عن كاهله حملا:
— غرامة عشرين! . غيره .

فنادى المحضر اسم امرأة، فحضرت مومس ريفية
قد زججت حاجبها بعود ثقاب، وطلت وجنتيها بذلك
الأحمر الفاقع الذى تطلّى به صناديق الدخان «السمسون»
وصورت بالوشم صورة قلب يحترقه سهم على ذراعها
العارية، ووضعت فى معصمها أساور «وغوايش» من
المعدن ومن الزجاج الملون. فنظر إليها القاضى وقال:
— أنت متهمة بأنك وقفت أمام باب منزلك .
فوضعت يدها فى خصرها وصاحت:

— هو ياروحى من وقف قدام باب بيته كفر؟!
— وقوفك فيه إغراء للجمهور .

— حسرة وندامة علينا . وحياة دقن القاضى عمر .

ما وقعت عيننا على جمهور ، ولا مر من قدام منزلنا
« ادلعدي » جمهور .

— غرامة عشرين . . . غيره .

فصاح قزمان أفندي باسم المخالف التالى فظهر
رجل كهل من المزارعين يبدو من زرقة « شال » عمامته
« المزهرة » ومن جلبابه الكشمير وعباءته الجوخ
الأمبريال وحذائه « اللستيك » الفاقع فى صفرة ، أنه
على جانب من اليسار واستواء الحال . فما أن مثل حتى
ابتدره القاضى :

— أنت يا شيخ ، أنت متهم بأنك لم تسجل كلبك .

فى الميعاد القانونى .

فتنحنيح الرجل وهز رأسه وتمتم كأنه يستغفر

ويسترجع :

— عشنا وشفنا الكلاب تتسجل « زى الأطيان »

وتبقى لها حيثة !

— غرامة عشرين . . . غيره .

ومضت الأحكام في جميع المخالفات على هذا النحو ولم أرواحداً من المخالفين قد بدا عليه أنه يؤمن بحقيقة ما ارتكب ، إنما هو غرم وقع عليهم من السماء كما تقع المصائب ، وأتاوة يؤدونها ، لأن القانون يقول إنهم يجب عليهم أن يؤدوها ! ولطالما سألت نفسي عن معنى هذه المحاكمة ، أنستطيع أن نسمى هذا القضاء رادعاً والمذنب لا يدرك مطلقاً أنه مذنب ؟ وفرغنا من المخالفات وصاح المحضر : « قضايا الجنج » ونظر في ورقة « الرول » ونادى « أم السعد بنت إبراهيم الجرف » . فظهرت فلاحه عجوز تدب في وسط القاعة حتى بلغت المنصة ووقفت بين يدي قزمان أفندي المحضر . فوجهها إلى القاضي فوقفت تنظر إليه يبصر ضعيف ثم لم تلبث أن تحولت عنه وعادت إلى الوقوف بين يدي المحضر الهرم . وسألها القاضي ووجهه في الورق :

— اسمك ؟

— محسوبتك أم السعد .

don't miss

قالتها وكأنها توجه الخطاب إلى المحضر فغمزها قزمان
أفندى ووجها إلى المنصة مرة أخرى وسألها القاضى :
— صنعتك ؟

— صنعتى حرمة .

— أنت متهمه أنك عضضت أصبع الشيخ حسن
عجارة .

فتركت المنصة ووجهت الكلام إلى المحضر :
— وحياة هيبتك وشيبتك إني ما عبت أبداً .
أنا حلفت ووقع منى يمين أن البنية ما يقل مهرها عن
العشرين بنتو . . .

فرفع القاضى رأسه وثبت منظاره ونظر إليها صائحاً :
— تعالى كلينى هنا ، أنا القاضى أنا ، العضة حصلت
منك ؟ قولى نعم أو لا ، كلمة واحدة .

— عضة ؟ حد الله ! أنا صحيح قبيحة ، لكن كله
إلا العض .

فصاح القاضى فى المحضر : « هات الشاهد » فحضر

المجنى عليه وقد لف بنصره في رباط صمى ، فسأله القاضى
عن اسمه وصناعته وحلفه اليمين أن لا يقول غير الحق
واستوضحه الأمر . فقال الرجل :

— أنا يا حضرة القاضى لالى فى الطور ولا فى

الطحين . والقصة وما فيها إني كنت واسطة خير .

وسكت . كأنه قد أبان وأفصح عن سر القضية .

فخلق فيه القاضى وهو يكظم غيظه ، ثم انتهره وأمره
أن يقص ما حدث بالتفصيل ؛ فبسط الرجل الأمر قائلاً :

إن لهذه المتهمة ابنة تدعى « ست أبوها » خطبها فلاح

يدعى « السيد حريشة » وعرض مهرأ قدره خمسة عشر

بنتو فلم تقبل أمها بغير العشرين ، ووقف الأمر عند

هذا الحد إلى أن جاء ذات يوم شقيق الخاطب وهو صبي

صغير يطلق عليه اسم « الزنجير » فذهب من تلقاء نفسه

إلى أهل العروس وأبلغهم كذباً أن الخاطب قد قبل

الشرط ؛ ثم رجع إلى أخيه وأخبره أن أهل البنت قد

رضوا النزول بالمهر كما عرض ، وكان من أثر عبث هذا

الصبي ومكره بالطرفين أن حدد يوم لقراءة الفاتحة في بيت العروس ، وانتدب الخاطب الشيخ عمارة هذا والشيخ فرج هذا ليكونا شاهديه . وتقابل الجميع وذبح والد البنت أوزة ، وما كاد الطعام يهياً ويقدم إلى الضيوف حتى ذكر المهر . وظهرت الأكذوبة وإذا الموقف لم يتغير ؛ واحتدم الجدل بين الطرفين . وصاحت أم البنت تولول في صحن الدار : يا مصيبتنا الكبيرة يا شماتة الأعادي والنبي ما أسلم بنتي بأقل من عشرين . وخرجت المرأة في وسط الرجال كالجنونة تدافع عن حق ابنتها وتخشى أن ينهي الرجال الأمر فيما بينهم بما لا ترضى ؛ وهزت الشيخ حسن الأريحية فلم يضع يده في طعام وقام إلى المرأة يداورها ويحاورها ويقنعها . بينما مد زميله الشيخ فرج يده إلى الأوزة وجعل ينهش منها نهشاً دون أن يدخل في النزاع المحتدم . ويظهر أن التحمس من الجانبين قد جاوز حد الكلام وإذا الشيخ حسن يرى يده لا في طبق الأوز ولكن في فم المعجوز ؛ فصرخ صرخة داوية

وانقلبت الدار شر منقلب ، واختلط الحابل بالنابل ،
وجذب الشيخ حسن رفيقه ، فانتزعه من أمام الطعام
انتزاعاً وخرج به وهو يحرق الأرم : فهذا الرفيق لم يقل
كلمة وحظى بالأكل ، وهو الذى تحمس قد خرج من
الولية بجوعه ، وقد أكلت العجوز أصبعه ...

واسترسل المجنى عليه فى الكلام . وبجأة أخذت
القاضى خلجة ، وتيقظ وسواسه فقاطع المتكلم ، وقال
كالمخاطب لنفسه : « ياترى أنا حلفت الشاهد اليمين ... »
والتفت إلى قائلاً : « يا حضرة وكيل النيابة . أنا حلفت
الشاهد اليمين ؟ » فجعلت أتذكر ... ولم يستطع القاضى
طرد الشك فصاح : « احلف يا رجل : والله العظيم أقول
الحق » فحلف الرجل ، فصاح به القاضى : « اذكر
أقوالك من أولها » .

فعلمت أننا لن ننتهى ، وبلغ الضيق أنفى وتشاءبت
وغرقت فى مقعدى وقد عبث النوم بأجفائى ، ومضى
وقت لست أدرى مقـداره ، وإذا صوت القاضى

يصيح بى : « النياية ! طلبات النياية . » ففتحت عينين
حراوين لا يبدو فيهما غير طلب النوم ، فأخبرنى القاضى
أنه اطلع الآن على تقرير الطبيب الشرعى فإذا الإصابة
قد تخلف عنها عاهة مستديمة هى فقد « السلامة » الوسطى
للبنصر ؛ فاعتدلت فى مقعدى وطلبت فى الحال الحكم
بعدم الاختصاص . فالتفت القاضى إلى العجوز قائلاً :
— الواقعة أصبحت جناية من اختصاص محكمة
الجنايات .

فلم يبد على المرأة أنها فهمت الفارق ؛ فالعضة فى
نظرها هى ما زالت العضة ، فما الذى حولها من جنحة
إلى جناية ؟ آه من هذا القانون الذى لا يمكن أن يفهم
كنهه هؤلاء المساكين !

ونوديت القضية التالية ، فإذا هى شجار بالهراوات
وقع بين والد « ست أبوها » وبين أهل الزوج (السيد
حريشة) فلقد تم الزواج بين الطرفين آخر الأمر . وبعث
الزوج بعض أهله ومعهم جمل لاستلام العروس من بيت

أيها . فقابلهم الأب محتدا صارخاً في وجوههم « جمل » ؟
بقى بنتى تخرج على جمل ! أبداً . لا بد من « الكومبيل » .
وتجادل الطرفان فيمن يدفع ثمن هذه البدعة التى
رماها بهم تطور العصر . وأدى الجدل إلى رفع العصى
وإسالة بعض قطرات من الدماء لا مناص منها فى مثل
هذه الظروف . وانتهى الأمر بأن أخرج أحد الساعين
فى الخير ريالاً من جيبه واستأجر سيارة من تلك
السيارات التى تمر بالطرق الزراعية . وحكم القاضى فى
هذه القضية ثم صاح :

— « انتهينا من الفرح » و « الدخلة » على خير ! ...

غيره !

فنادى المحضر بصوته الممتلئ « قضايا المحاييس »
وذكر إسمائاً من الأسماء ، فدوت صلصلة السلاسل ونهض
من بين لابسى الخيش رجل فك الحارس قيده . ونهض
من بين المحامين أفندى ذو بطن كأنها القرية المملوءة
وقال : « حاضر مع المتهم » . « فقلت فى نفسى » : تلك

قضية لها محام لن يتركنا قبل أن يفرغ في رؤوسنا ما شاء
بحجة حرية الدفاع . فلا غمض عيني منذ الآن فرأسي
أحوج ما يكون إلى الراحة بعد سهر الليل . وسمعت
القاضى يقول للمحبوس :

— أنت متهم بأنك سرقت « واور غاز » ...

— أنا صحيح لقيت الواور قدام باب الدكان . لكن

لا سرقت ولا نهبت ...

فالتفت القاضى إلى المحضر قائلا : « هات الشاهد »
فحضر رجل على رأسه لبدة بيضاء وعلى منكبيه « دفيّة »
خلف اليمين وقال إنه أشعل « واور الغاز » ليهيئ الشاى
لبعض « الزبائن » الجالسين داخل الحانوت . فهو بدال
رifi صغير يبيع السكر والبن والشاى والتبغ ويجمع
لديه أحيانا بعض الناس كأنهم فى شبه مقهى ، ولقد وضع
الواور مشتعلا عند عتبة الباب فى الطريق ودخل يحضر
الإبريق وما إن عاد حتى رأى المتهم قد حمل الواور بناره
وجرى به . وجعل الشاهد يسهب ويستشهد بمن حضر

ومن جرى معه خلف السارق ، والقاضى مطرق وقد علمت من هيئته أنه يفكر فى شىء آخر . ونجأة نظر إلى وقال كالمخاطب لنفسه : « أنا حلفت الشاهد اليمين ؟ » فتما لكنت أن صحت فى ضيق : « سبحان الله ! أنا سمعت الشاهد حلف » ، فقال لى القاضى : « أنت متأكد ؟ » فشعرت أن روحى تفارقتى فهمست : « تحب أنى أحلف لك أنه حلف ؟ » فاطمأن القاضى بعض الاطمئنان وأصغى إلى بقية الشهود فى صمت وانتباه . ولم يطق المتهم صبراً فنهض بغتة كالمستغيث :

— يا حضرة القاضى ! فى الدنيا « حرامى » يسرق « وابور جاز » بناره ؟ !

فأسكته القاضى بإشارة من يده قائلاً :

— تسألنى أنا ؟ ! أنا عمري ما اشتغلت « حرامى » !

ونظر إلى منصة الدفاع ، فقام المحامى عن المتهم يصيح قائلاً : « يا حضرة الرئيس ! نحن لم نصادف وابور ، ولا رأينا وابور ، ولا صررنا فى طريق به وابور ... والقضية ملفقة

من ألفها إلى يائها ... » وأراد المحامي أن ينطلق في هذا الكلام وأن يصول ويجول . ولكن القاضى قاطعه :
— حاكم يا أستاذ . المتهم نفسه معترف بأنه صحيح لى الواور قدام باب الدكان .

فضرب الأستاذ وجه المنصة بقبضته وقال :

— هذا سوء دفاع من موكلى .

فأجاب القاضى فى هدوء :

— غرض حضرتك أنى أصدق حسن دفاعك وأكذب الحقيقة التى نطق بها موكلك أمامنا جميعاً !
فاحتج المحامى ورفع عقيرته وقد بدا لى أن كل همه أن يجلجل صوته فى الجلسة ، وأن يتصبب عرقه فيمسحه بمنديله وينظر إلى « زبونه » كأنما يريه الجهد الذى يتكبده من أجله والعناية التى يبذلها فى سبيله . وكان التعب والضيق والحبس بلا حراك أمام منصتى قدصيرنى شخصاً لا يعنى ولا يفهم ما يدور حوله فأخفيت وجهى فى ملف من ملفات القضايا واستسلمت للنعاس .

١٣ أكتوبر ...

انتهت الجلسة عند العصر ، وقد خرجت منها محطماً
الأعصاب . وما كدت أفترق عن القاضى حتى وجدت
فى وجهى أحد العساكر يحمل أ كداساً من « نماذج »
تنفيذ الأحكام ، يقدمها إلى للتوقيع . فوضعت إمضائى
دون وعى على هذه الأوراق التى ليس لها آخر . وإمضائى
الآن لا يمت بصلة الشبه إلى إسمى ، فقد أصبح مع السرعة
وكثرة التوقيع خطأ أو خطين ألقيهما حيثما اتفق . وما
إن فرغت من ذلك وقد تصبب منى العرق حتى سمعت
من يضرب الأسفلت بحذائه ويرفع كفه بالسلام :

— التحقيق منتظر فوق فى قضية ضرب النار !

ولكن للقوة الآدمية حدوداً . ولم أبلغ بلقمة ولم
أطرح جسمى على فراش منذ .. منذ أمس الأول . فما
تمالكك أن قلت :

— ضرب نار فى عينك ؟ لو كنا عسكرياً فى الخنادق ،

أو فى حرب الدردنيل لرافوا بحالنا وخافوا على صحتنا ...

لكن ما ذنب الخفير أوجه إليه هذا الكلام ؟
فتركته وسرت في طريقي ، وصعدت إلى مكتبي في
الطابق الثاني فألفيت ببابه الفتاة « ريم » منتظرة مع
الحراس وعلى مقربة منها الشيخ عصفور بعوده الأخضر ؛
ولست أدري ماذا ينتظر مع المنتظرين ؟ وأنعشني قليلا
مرأى الفتاة كما ينتعش العشب الذابل بقطرات الندى .
ودخلت حجرتي فرأيت المأمور والمعاون وكاتب التحقيق
جالسين في نشاط المستيقظ من نوم مريح ، فعلمت أنهم
أتون من منازلهم ، وأنهم الآن على استعداد لقتل الوقت
في هذه القضية ، فذلك خير من لعب « الطاولة » في
النادي أو مص القصب أمام الأجزاخانة . أما أنا فإنسان
لا يصلح الآن لشيء إلا للرقاد سبع ساعات متواليات .
فأعلنت الحاضرين برغبتي في تأجيل التحقيق إلى الغد ،
فأذعنوا . ولكن بدا مشكل لم يفطن إليه أحد : هذه
الفتاة أين تبئت ليلتها ؟ إنها الآن على مسافة بعيدة من
قريتها . وليس من الرأي أن تعود لتأتي مع الصباح .

فقد يتصل بها بعض من يعينهم أمر القضية من الأهالي والشهود فيلقنونها ما لا يستقيم مع الصدق والحق ، وهي لا تعرف أحداً في هذا المركز ولا أهل لها به . هنا صاح المأمور كمن وجد الحل السعيد الموفق :

— المسألة بسيطة . البنت تنام في بيتي للصباح . فالتفتنا إليه جميعاً في شبه زعر ؛ ثم تمالكنا أنفسنا ، ولست أدري كيف دب فينا نحن الحاضرين نفس الشعور في نفس الوقت . حتى الشيخ عصفور ، وقد زحف خلفي ودلف إلى الحجرة ، ظهر في عينيه القلق . وكان الموقف دقيقاً . إن أى اعتراض منامعناه الريبة في سلوكك حضرة المأمور ؛ ومن جهة أخرى إذا سامناه هذا الجمل الوديع فإن الله وحده هو المنجى . فهذا المأمور قد شاعت له شائعة أنه استملح ذات يوم فلاحه دخلت عليه بشكوى ، وأراد أن يختل بها ، فأمر عسكريه وخفراءه أن يدخلوا سجن المركز ويحلقوا ذقون المساجين . فلما دخلوا أغلق عليهم الباب من الخارج وجلسهم ساعة انفراد خلاها

بالمرأة... تذكرت ذلك وقلت في نفسي: إذا ساءت الأمور
وتخرجت فأى عبء يوقر ضميرى أنا وكيل النيابة
الذى دفع بيده هذه التفاحة اليانعة إلى هذه الأنياب
التي يسيل منها اللعاب؟! العجيب أن الحاضرين كلهم
قد أطرقوا ووجهوا كمن قد أيقن وقدر أنها أكلت
ومضغت وانتهى الأمر! وأراد المأمور أن يدخل علينا
الاطمئنان فقال:

— أنا غرضى أنها تكون في محل أمين بين زوجتى
وأولادى.

ولم أجد بداً من الإذعان. وتركت المكان
وانصرفت إلى منزلى. وتناولت شيئاً من الطعام
على عجل. ثم أويت إلى فراشى واستغرقت في نوم
لم أضح منه إلا عند منتصف الليل. قمت عطشان
فشربت جرعة من «القلة» الفخار بالنافذة وتذكرت
الفتاة وتحيلتها في بيت صاحبنا فنقر من رأسى
النوم. وتمنيت لو يقع الآن حادث أقوم له ومعى المأمور

ولكن الحوادث كالقسط إذا ناديتها رفضت المجيء وإذا طردتها جاءت تتمسح بالأقدام ولم أجد ما أصنع . وخالجتنى ريب وشكوك . وطال الليل فى نظرى وسمج وتميت طلوع النهار . وأردت أن أشغل فكرى بتدوين يومياتى فجمد القلم فى يدى . ووقع بصرى على أكوام من قضايا الجنج والمخالفات والعوارض من «إيراد» اليومين السابقين أرسلها إلى كاتب الجدول لقراءتها وتقييدها ووصف التهمة وتقديمها إلى الجلسات . فلم آنس عندى ميلاً إلى العمل . فاتجهت إلى النافذة وفتحتها واستنشقت هواء الليل الرطب ، ونظرت إلى النجوم تشرف على هذا السكون الشامل فى هذا الريف النائم ، كأنها عيون ساهرة مطلعة على خفايا الأشياء . . .

فجأة خطر لى ان أرتدى ثيابى وأن أنزل إلى الطريق وأرود حول منزل المأمور . ما هذا الجنون ؟ أنا أفعل ذلك ؟ وإذا (ضبطنى) خفير الدرك ؟ إنه قد يعرف شخصى فيعتذر . ولكنه سيخبر الناس ويشيع الخبر وتكون

الفضيحة . لا مفر إذن من انتظار الصباح وما يأتي به ...
على أن الله لطف بي آخر الأمر فأرسل إلى إشارة
تليفونية ، طالعتها في الحال فإذا هي واقعة تافهة مما
لا نقوم لمثلها بالليل :

« ... بمرور قطار البضاعة نمرة ٢٠٩ خط الدلتا
الضيقة عند الكيلو ١٧ أثناء عمل مناورة وجد مسمار
حدادي على الشريط والحادثة بفعل فاعل مجهول .. الخ »
وقد أشر المأمور في ذيل الإشارة بانتداب حضرة معاون
الإدارة للإنتقال وإخطار البك وكيل النيابة للعلم .
ومعنى ذلك أنه لن يقوم ولا يريد لي أن أقوم . ولكن
كيف أضيع هذه الفرصة التي هبطت من السماء ؟
ليس أحب إلى الليلة من أن أقلق راحتي وراحة
حضرة المأمور . وارتديت في الحال ثيابي وأمرت
بإحضار السيارة ومررت بمنزل صاحبنا . وأطلقت عليه
من يوسع بابه طرقاً ويخبره بانتقالى . فأطل الرجل من
نافذته صائحاً :

— مسمار صغير نقوم له كلنا بالليل !

فأخرجت رأسي من نافذة السيارة :

— لو كانت إبرة . ما دامت الحادثة بفعل فاعل

أصبحت جناية ، لاحظ أنها جناية تعطيل قطار ، أخطر

جناية في الدنيا . لا بد من حضورك يا حضرة المأمور

— أنا ... أنا انتدبت معاون الإدارة .

— لا بد من حضورك شخصياً .

— الليلة .. مستحيل .. أنا الليلة .. تعبنا ..

— كلنا في التعب سوا ؛ لكن الواجب يحتم

علينا ... !

فأطرق المأمور لحظة مفكراً في ضيق وامتعاض ،

ورأى عزيمتي واستماتني ، وخشى أن يعارضني في أمر متعلق

بالعمل ، فأذعن وطلب إلى الانتظار هنيهة حتى يرتدى

ثيابه ، ونزل وجلس إلى جانبي في السيارة وهو ينفخ من

الغيظ . وتنهت إلى غيبة الشيخ عصفور . إذ على الرغم

من صوت البوق لم يبد له أثر ؛ وكان فكر المأمور

مشغولا هذه المرة ، فلم يفتن لغياب الشيخ ، فلقد مضى
فى إطراره برهة ثم قال :

— أى نعم ! الواجب يحتم علينا .. لكن يعنى ..

مسار ! ؟

فأغمضت عيني حتى لا ينتظر منى جواباً ، فاستطرد :

— الله يمسيه بالخير وكيل النيابة سلفك . كان يسأل

فى قضية القتل شاهدين فقط لا غير ويقفل محضره ويميل

على ويقول : « هو القتل أبونا والآ أخونا ؟ قم يا شيخ

نبل ريقنا بكاس ! »

ولم أعقب على كلامه بحرف ، ولم أنبس طول

الطريق بكلمة حتى بلغنا الكيلو ١٧ ، ووجدنا عمال

الدريسة وقطار البضاعة وسائقه . وقدم إلينا نائب العمدة

المسار ، وأشار إلى عربة محملة بأكياس من القطن كادت

تخرج عن القضيب ، فتناولت المسار بين أصابعى

وجعلت أفحصه ، والمأمور خلفى يقول باسمنا :

— « كان العطش جى فىن لما الوابور وقع انكسر »

فعلمت أنه يهزل ، وأنه يشير إلى تلك الأغنية التي كانت شائعة منذ ثلاثين عاما يوم كانت شفيقة القبطية تجلس على عرش الطرب . وسمع السائق تلك العبارة وحملها محمل الجد فتقدم يقول :

— لا حصل كسر ولا وقوع يا فندم ! وأنا ساعة الحادثة كنت جنب الفرملة ، وربطت في الحال ... ومضى يسرد آراءه قائلا : إن أهل هذه المنطقة بسطاء العقول ولعلمهم من أصلاب تلك القرية التي « عزمت القطار » في أول ظهوره وقدمت إليه الطعام والشراب ، ولا يبعد أن يكون أحد هؤلاء الأهالي قد دفعه العبط أو حب الاستطلاع أن يضع هذا المسمار على الخط الحديدي ليرى ما يصنع القطار ، وكيف يتصرف ، وكيف يقع على جنبه أو على وجهه . وتقدم عامل دريسة فقال : إن المسألة ليست مسألة بساطة أو بلاهة . إنما هو انتقام من الشركة ، فالأهالي في هذه الجهة يعيشون على استخراج الحصى من الجبل ونقله على

١٥٥٤

الحخير والجمال ويبيعه للمقاولين ، فجاءت شركة سكة حديد
الدلتا الانجليزية فمدت هذا الخط حديثاً إلى الجبل
وخصت نفسها بهذا المورد وانتزعت بذلك حتى هذا
الحصى من أفواه هؤلاء الجياع المساكين ، وسواء
كان هذا هو السبب أو ذاك فإن الفاعل هنا أيضاً
غير معروف ولا ينتظر معرفته . وقد اتهمنا من
الأمر بأن وضعنا المسمار داخل « حرز » وختمنا عليه
بالشمع الأحمر وأرققناه بالأوراق إلى آخر
هذا الكلام الرسمي الذى هو كل بضاعتنا ، وكان
الندى قد تساقط على رؤسنا فرآى المأمور فتح المحضر
فى « دوار » العمدة ، فسألت عن المسافة بيننا وبينه ،
فرد نائبه قائلاً :

— « فركة كعب » يا حضرة البك !

فصدقناه ، وسرنا على أقدامنا حتى كادت مفاصلنا
تنخلع ، وما وصلنا حتى أذن الفجر فى زاوية الناحية ،
وتركت المأمور « يسبخ » لنائب العمدة على « فركة »

الكعب ، وانهمكت في فتح المحضر وسؤال الشهود حتى فرغت منهم جميعاً ، وأردت أن أختم محضري ، وإذا بي أرى حركة نصب مائدة وإعداد طعام وحضرة المأمور قائماً قاعداً ينظر في الخوان ويدخل ويخرج دون أن أعلم ما يشغله من الأمر ، وأخيراً سمعته يقول للعمدة في ناحية :

— اسمع يا عمده ! البك الوكيل لا يحب الخرفان على الصبح ولا الديوك ولا حاجة أبداً ، ولكن لا بأس من كم زغولة مدفونة في الأرز ، والقراقيش إياها والفطير المشتت ؛ وإن كان عليه كم كتكوت محرم مفيش ضرر ، واللبن الرايب طبعاً شيء مفيد للصحة . ولا بأس من كم بيضة مقلية في القشدة ، كفايه ، إياك يا عمده تعمل حاجة زيادة ، البك الوكيل أكلته ضعيفة . إن كان عندك غسل نحل بشمعه لا بأس . قرصين جنبه ضاني لا مانع ، طبق كعك وغريبة .. الغرض حاجات خفيفة لطيفة وانت سيد العارفين !

استغلال الحماة
لخدمة الشعب

أطرقت لهذا الكلام واحمر وجهي ولم أدر ما أصنع .
ورأيت الخير في أن أسرع بالانصراف . فطويت
أوراقى على عجل . ولكن عين المأمور لحظتني وأدرك
غرضي . فجاءني مسرعاً يسألني :

— التحقيق انتهى ؟

— من زمان !

فنظر إلى المائدة التي لم يوضع عليها شيء بعد ثم
نظر إلى :

— جميع الشهود أعطوا أقوالهم ؟

— جميعهم .

— ولا شاهد واحد فاضل ... ؟

— ولا ربع شاهد .

فتركني وخرج سريعاً ثم عاد بعد قليل يجذب
أحد الأهالي من « حرامه » ودفعه أمامي دفعاً وأشار
إليه وقال :

— شاهد مهم قوى ، عنده أقوال .

فأبدت ارتياي في قيمة كلام هذا الرجل وأظهرت
رغبتي في الاكتفاء بمن سألت من شهود . ولكن
المأمور ألح في الرجاء أن أصنى إلى هذا الشاهد أيضاً فإن
لديه معلومات ذات أهمية عظمى . فنشرت ورق من
جديد وما كدت أبدأ في إلقاء السؤال ، حتى برز العمدة
وخلفه خدمه يضعون الطعام على المائدة . وارتفع صوت
سيد الدار يدعونا إلى الفطور . فاعتذرت بضعف صحي
وإمساكي عن الأكل عادة في الصباح . فانطلق من
العمدة قسم غليظ . وتواطأ في الحال مع المأمور على حملي
من مكاني حملاً . وإذا بي أجد نفسي في صدر المائدة .
فأذعنت ، وجعلت أنظر ساعة إلى هؤلاء المخلوقات
وبينهم المأمور يأكلون وينهشون ويزدردون وقد
انشغلوا بأنفسهم فلم يفتنوا حتى إلى قلة أكلتي ؛ وقت
من بينهم متسللاً بعد قليل وجلست في مكاني الأول
أنتظر تارة وأتصفح محضري تارة إلى أن فرغوا من
أمر بطونهم وأتوا على ما فوق الخوان وقاموا يمسخون

أيديهم في غطاء المائدة الذي لم ير وجه الصابون منذ
عامين ، وأقبل على الأمور يتجشأ ويقول :
— أظن نرجع مادام التحقيق انتهى .

فأشرت إلى الشاهد الذي كان قد جاءني به وقد
نسيه الآن فيما يظهر :

— لما نسأل الشاهد المهم !

فأجاب المأمور من فوره :

— لا مهم ولا حاجة .

وتركني واتجه إلى الفلاح وقال له :

— أنت يا ولد عندك معلومات ؟

فأجاب الفلاح :

— « لَعَّ » .

أى لا . فالتفت المأمور إلى قائلاً :

— جحش الله في برسيمه ! لا عنده معلومات

ولا يحزنون . قم بنا يا سعادة البك نرجع بلدنا !

ونهضنا عائدين ، وقد ارتفعت الشمس . ولم نكد

نبلغ دارالمركز حتى أقبل علينا « البلوكامين » يحمل إشارة من المستشفى الأميري أن المصاب « قمر الدولة علوان » قد أفاق من غيبوبته الآن ويمكن استجوابه ، فأسرعنا إلى المستشفى لا نلوى على شيء ، خشية أن يعود المصاب إلى الأنحاء أو سوء الحال فلا نستطيع أبداً أن نستخلص من بين شفتيه سر الحادث .

ودخلنا المستشفى وسألنا عن « الحكيمباشي » فقليل لنا أنه في قاعة العمليات ، فسرنا في الردهة الموصلة إليها ، فقابلتنا تلك الأسرة الصغيرة والمحفات التي تجري على عجلات فوق الأسفلت كأنها عربات الجمالين في المحطات الكبرى ، ورأينا تلك المباخر وأدوات التعقيم تدفع على بكر ويتصاعد منها البخار ، والمرضون في هرج ومرج بأرديتهم البيضاء يدفعون تلك العجلات التي تحمل أجساماً في طريق الفناء ، ويدخلون بها تلك القاعة الرهيبة ويخرجون دون أن يبدو على وجوههم أثر اهتمام لموت أو حياة ، فوقفت قليلاً وقد شرد خاطري

وخامرني إحساس من يقف في المحطة بين القطر . نعم ،
أو لست الساعة في تلك المحطة التي يسافر منها المريض
إلى العالم الآخر ؟ وحانت منى التفاتة إلى باب المستشفى
الكبير ورأيت العسكري المكلف بالحراسة يطرد
زرافات النساء المجتمعات في ثيابهن السود و « طرحهن »
الزرق وأصواتهن التي يقطعها عويل القلق . فعلمت أنه
سيبقى إليهن بجثة بعد قليل . فإنهم في كل يوم يلتقون
خارج أسوار هذا المكان بجثة أو جثتين ليفترسها الحزن
الرابض بالباب ذوالناب الأزرق في لون « النيلة » والخباب
المعفر بالطين والتراب .

وفتح باب قاعة العمليات وخرج ممرض يحمل دلواً
فيه دم سائل ومتجمد وقطع من اللحم كأنها أحشاء
خروف ، فنظرت في ذلك ، فقال لى الرجل إن هذا
خرج من بطن امرأة هي الساعة فوق المشرحة تحت
البنج ، فجمدت في موقعي . وبادر المأمور وطلب باسمي
مقابلة الحكيمباشى في الحال . فذهب الممرض وعاد

يفتح لنا باب قاعة العمليات ، فتجلدت ودخلت وخلفي
من كان معي ، فقابلني الحكيمباشي بابتسامة وهو مازال
منحنياً في معطفه الأبيض على شيء فوق المشرحة وقد
شمر عن ذراعيه وفي يده أداة كأنها « الكاشة » وحوله
رهط من أصدقائه غير الأطباء عرفت منهم بعض الأعيان
في ملابسهم العادية . فدنوت ونظرت إلى الذي بين يديه
فإذا هو جسم فتاة قد شق بطنها شقاً طويلاً من الصدر
حتى أسفل البطن ، وإذا « الكاشة » في يده تجمع
الجلد الذي انشق وتخيطة بشيء كأنه المسامير الصغيرة
والطبيب يفعل ذلك في سرعة غريبة وهو يثرثر مع
ضيوفه مازحاً ضاحكاً كأنه « حاو » يفاخر بخفة يده
ومهارة صناعته . ونظرت في وجه البنت الشاحب وهي
كالميتة ، ثم إلى جلدة بطنها وقد رشقت بالمسامير في
صف طويل كأنها جلدة حذاء في يد الإسكافي ؛ فشعرت
بدوار في رأسي وخفت أن أسقط ، فاعتمدت على جانب
المشرحة . ولحظ الطبيب اصفرار وجهي فترك المريضة

وحدق في وجهي قلقاً . فأسرعت وخرجت من القاعة
وأنا أقول له في صوت لم يخرج إلا نصفه من حلقى :
— منتظر كيا دكتور بعد العملية .

وسألني المأمور عما بي فلم أستطع التعليل . إني قد
شاهدت كثيراً من عمليات التشريح ، وطالما رأيت
جثثاً تقطع أمامى وبطوناً تبقر فلم أتأثر . ولكنها
كانت أجساداً لا حياة فيها ؛ أترانى شديد التأثير لمراى
الأجسام الحية تعامل معاملة الجمادات ؟ أم أنها فضلة
من رائحة البنج غبق بها جو قاعة العمليات فبلغت
خياليمى إذ دنوت من جسم الفتاة ؟

وأعادنى الهواء الطلق خارج القاعة إلى نشاطى
وجلسنا ننتظر فى مكتب الحكيمباشى ، ونشرب قهوة
طلبها لنا « الباشتمرجى » . إلى أن حضر رئيس الدار
فقادنا مرحباً إلى « عنبر » المصاب .

وجلسنا معه خلال ممرات ازدحمت بالأسرة إذ لم
تكف « العنابر » لإيواء هذا القدر من التعساء . ورأينا

المرضى الناقهين من أصحاب « الزعايط » الزرقاء يتناولون
في نهم حساءهم في أوانٍ صغيرة من « الألومنيوم » ،
وينظرون إلينا ومعنا الحكيمباشى كما ينظر القردة في
حديقة الحيوانات إلى الحراس مع كبار الزائرين .

ووصلنا إلى سرير « قمر الدولة » ، فوجدناه ممدداً
لا يتحرك . ونزع الحكيمباشى من رأس السرير تلك
الرقعة التى يدون فيها تطورات مرضه وقرأ علينا
تشخيصات طيبة لم أحفل بها الساعة وقلت :

— الغرض ، يمكننا استجوابه حالاً ؟

فأجاب الطبيب فى صوت خافت :

— أظن مع الاختصار الكلى .

ثم دنا من المصاب وناداه فى هدوء ففتح قليلاً
عينين ذهب بريقهما وكأنهما لا يريان ولا يثبتان على شئ
بعينه . فاقتربت من الرجل وسألته :

— يا قمر الدولة ! من ضربك ؟

فلم يجب . فأعدت عليه السؤال ففتح شففيه ولم

يقول شيئاً . فألححت عليه فبذل جهداً ظاهراً وقال
كلمة واحدة :

— ريم !

فدهشت قليلاً . والتفت يمنة ويسرة فوجدت
المأمور وسكرتير التحقيق شأنهما شأني في الإهتمام
بالأمر والعجب له فنظرت في وجه المصاب وقلت :

— وضع غرضك يا قمر !

فلم يجب .

— قصدك أن ريم هي نفسها ...

فلم يبدحرا كما ...

— يا قمر ، يا علوان . تكلم . لا بد أنك تتكلم . كلمة

واحدة . الضارب ! من الضارب ؟

ولكننا نطلب المستحيل . فقد أغمض عينيه

وقد تفصد جبينه عرقاً . فحذني الحكيمباشي من يدي

بعيداً وقال :

— كفاية !

فنظرت إلى المأمور يائساً :

— كفاية ؟ !

وهل ظفرنا نحن بشيء ؟ لقد كان موقفنا عند
دخولنا أوضح منه الآن . إنها كلمة لفظها هذا الفم الجاف
بعد جهد ، ليته لم يلفظها

١٤ أكتوبر ...

تركت المأمور يذهب إلى شأنه . وعدت إلى مكنتي
بدار النيابة . وعلم المساعد بعودتي فحضر وهو كالمشتاق
إلى رؤيتي . ولكنه عاتبني على إغفالي إياه في واقعة الليل .
فتنبهت إلى أنني حقيقة نسيته كل النسيان . إن اهتمامي
باصطحاب المأمور تلك الليلة قد ألهاني ولا شك عن كل
شيء آخر . ومع ذلك فهي حادثة تافهة لم يستفد منها غير
بطن حضرة المأمور . ولم يقع ضررها إلا على جيب
حضرة العمدة . آه لهؤلاء العمدة ! لشد ما أرثي لحالهم !
وظهر « فراش » المحكمة الحاج خميس . فطلبت إليه
كوباً من الشاي الخفيف . والتفت إلى مساعدتي فأقبل
على يحدثني كمن يتحدث لمجرد الحديث ، وكأني به جوعان
كلام . إن الوحدة قد كادت تقتله أثناء غيبتني عنه . لقد
سئم الريف . إنه لا يجد هنا قهوة واحدة يليق أن
يدخلها مثله . اللهم إلا دكان ذلك البدال الرومي « طناشي » .
وضعت أمامه مائدتان من الخشب وكريسيان من القش .

وقد أطلق عليه الأهالي اسم « الخخارة » . وحتى هذا
الرومي قد ارتدى جلبابا كجلباب الفلاحين فلم يعد شيء
ينم على أنه « أفرنجي » غير لون العينين والشعر . أين
يتنزه ؟ وأين ينفق وقته ؟ هذا الشاب الذي جاء من
العاصمة منذ أيام حيث الأنوار والملاهي والضجيج ؟ إنه
الآن لا يكاد يرى غير مبان قليلة أكثرها متهدم . وغير
هذه « الجحور » المسقفة بمحطب القطن والذرة يأوى
إليها الفلاحون . إنها في لونها الأغبر الأسمر لون الطين
والسماد وفضلات البهائم ، وفي تكديسها وتجمعها
« كفوراً » و « عزباً » مبعثرة على بسيط المزارع ،
لكأنها هي نفسها قطعان من الماشية مرسلة في الغيطان .
هذه القطعان من البيوت التي تعيش في بطونها ديدان
من الفلاحين المساكين هي كل ما تقع العين عليه في
هذه البقاع . ويزيد في كربه هذا السكون الذي يهبط
على البلدة منذ الغروب . فلا يسمع بعدئذ غير خوار
الجاموس ونبح الكلاب ونهيق الحمير ونحيب السواقي

عمر
الفلاحين
السلمى

والشواذيف والكباسات ، وأصوات بعض الأعمرة
النارية يطلقها في جوف الليل الخفراء الخصوصيون
أو النظاميون أحياناً إرهاباً للغير أو تشجيعاً لأنفسهم .
إن مساعدي يريد دواء لهذا الضيق . وهل من دواء
للريف غير الزواج أو السير المعوج أو المطالعة وتحرير
المذكرات كما أفعل أنا كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً ؟
وفكر صاحبي في الاختلاف إلى النادي . إنه لا يعلم
شيئاً عن نادي هذا المركز . إنه اسم يطلق على حجرة
في منزل عتيق يصعد إليها بسلم من خشب . وهي تضاء
بمصباح غازي أي « كلوب » وهذا « الكلوب » هو
وحده الشيء الجدير بالاحترام في الحجرة . أما أهل
النادي فهم بالطبع رجال الإدارة وطبيب المركز وبعض
الأعيان والموظفين وصاحب الأجزاء . ولا يشغل
هؤلاء في ذلك المكان غير لعب الورق « والطاولة »
واغتياب الناس . فهل يليق بممثل النائب العام في هذا
المركز أن يندس في هذه الزمرة ! لقد قلت لمساعدتي أنني

« شخصياً » أفضل أن يكون عضو النيابة بعيداً عن كل هذا إذا كان يريد أن يجعله الجميع . وأنا لن أنسى ذلك اليوم الذى دعانى فيه رجال الإدارة إلى حفلة عشاء فى ذلك النادى مع القاضى المقيم تكريماً لزميل لهم منقول . ولم أستطع الاعتذار فذهبت . وإذا زجاجات الوسكى على المائدة بجوار الطعام . وقد ملأوا كأسى وكأس القاضى . ولم يفطن القاضى لنفسه فشرب وأكثر ، وجعل يثرثر ويضحك حيث لا موضع للكلام والضحك وعندئذ مال على المأمور وقد سكر هو أيضاً وألقى فى أذنى صاحكا : « البك القاضى فقد وقاره ! » فلم أرد أن أسمع أكثر من ذلك . فانسلفت منصرفاً إلى بيتى فى هدوء دون أن يشعر بى هؤلاء المتخبطون فى كوؤوسهم . منذ ذلك اليوم وأنا لا أضع قدماً فى هذا النادى . واقتنع مساعدى بكلامى . وأردت أن أزيده بياناً ليزداد حرصاً ، ولكن الحاج خميس دخل حاملاً كوباً لم يكده يقع نظرى عليه حتى صحت :

— ما تستقيني أحسن جبر « كوييه » وتخلص !
— صلّ على النبي ياسيدنا البك ! أنا بقي لى عشرين
سنة فراش محكمة . وورد على أصناف الأهالى والموظفين
تصدق بالله ! ما ينفع فى المحاكم إلا شاي مرّ طعم
« الفورنيه » !

فترددت قليلاً ثم لم أجد مناصاً وقلت :
— شاي المحاكم وشغل المحاكم كله مرّ والسلام ،
هات . !

ووضع الرجل الكوب الزجاجى أمامى وانصرف .
وما كدت أرشف رشفة حتى فتح الباب ودخل
عبد المقصود أفندى رئيس القلم الجنائى بروحه الذى
لا أستخف له ظلاً وقال :

— عندنا من نوع التلبس أربع قضايا .
— هات !

فذهب وأرسل إلى العسكرى القادم « بالمحاضر »
والمقبوض عليهم . وأخذنا نطالع الأوراق قبل أن

نستدعى أماننا المتهمين . وجعلت من نصيبي ثلاث قضايا . واستصغرت ملفاً ألقيت عليه نظرة سريعة وأعطيته مساعدى وأنا أقول له : « سرقة كوز ذرة . لن نعثرك على أسهل من مثل هذه السرقة . سل هذا المخلوق فستجده معترفاً فى أمان الله ! » . وبدأ الاضطراب قليلا على المساعد : فهذه أول مرة يستجوب فيها متهماً . وتناول من يدي المحضر . وجعل يقرؤه كلمة كلمة . ويعيد قراءة هذه « القسائم » التى لم تزد على الخمس . وفرغت أنا من أمر نصيبي البالغ أضعاف ما عنده وهو ما زال منهمكا فى إعداد ملخصات وافية ، وملخصات للملخصات ، وأسئلة معدة إعداداً كأنها قنابل ستلقى فى صدر سارق « كوز الذرة » . فكتمت ضمكى . أنا أيضاً فى مستهل حياتى القضائية كنت أفعل فعله . ولقد قسا على القدر أشد مما قسا على هذا الشاب فنكبى بقضية تزوير معقدة كانت هى أول عهدى بالتحقيق . ولست أنسى اضطرابى وقتئذ وقد مثل أمامى المتهم

المزور بطول باعه وذلاقة لسانه واعتياده المشول أمام
القضاة ، فذهبت الأسئلة المجهزة من رأسى ، ولم أدر
ما أقول وانتظر الرجل واقفاً فى هدوء أن أفتح فى
أو يفتح الله على بسؤال ، وتصيب منى شبه عرق وأنا
أرى المتهم أحسن منى حالاً وأربط جأشاً وأقوى امتلاكاً
لأمره ، وخيل إلى أنه يسخر منى فى دخيلة نفسه . وكان
كاتب التحقيق رجلاً قديماً ذا مران طويل صادف فى
حياته ولاشك عشرات من المساعدين الجدد أمثالى .
عرف ما بى فأسرع يعاوننى ويلقننى ما ينبغى أن أبدأ به
من أسئلة وأنا أتقبل منه المعاونة بأنفة وكبرياء دون
أن أظهر له حاجتى إلى تدخله . وأمثال هذا السكرتير
الهرم من ذوى الحق المغموط والفضل المجهول كثيرون
وقد سمعت أحدهم يقول لى مشيراً إلى بعض من كبار
رجال القضاء : « علمناهم الشغل ومشوا وارتفعوا وبقوا
قضاة ومستشارين والواحد منا واقف فى مطرحة
لا يكبر ولا يصغر » زى جحش السبخ ! تذكرت كل

هذا وأنا أنظر إلى وجه مساعدي . ورأيت أن أتعهد خطاه الأولى بنفسى ، فطلبت إليه أن ينحى جانباً هذه المخصصات ، وأن يضيف بأصبعه على الجرس ففعل وظهر الحاجب بالباب فأمرته بإحضار المتهم الأول ، فدخل فلاح كهل قد برز من صدره شعر أزرق أشيب كأنه شعر ضبع مسن ؛ وقلت للمساعد أن يوجه ما يحضره من أسئلة ولا يخاف ، وأنا أعينه إذا توقف ، فاحمر وجه الشاب وتردد ، ثم تجلد ونظر إلى المتهم وسأله :

— أنت سرقت كوز الذرة ؟

فأجاب الشيخ لفوره من جوف مقروح :

— من جوعى !

فنظر المساعد إلى وقال فى لهجة الإلتصار :

— « اعترف المتهم بالسرقة » !

فقال الرجل فى بساطة :

— ومن قال إنى ناكراً ، أنا صحيح من جوعى نزلت

فى غيط من النيطان سحبت لى كوز ...

ووقف القلم في يد المساعد ، ولم يعرف ماذا يسأل بعد ذلك . والتفت إلى يستنجدني ، فنظرت إلى الرجل سائلاً :
— سين ، يا رجل لماذا لا تشتغل ؟

— جيم ، يا حضرة البك هات لي الشغل وعيب
على إن كنت متأخر . لكن الفقير منا يوم يلقى ، وعشرة
ما يلقى غير الجوع .

— أنت في نظر القانون متهم بالسرقة .
— القانون يا جناب البك على عيننا وراسنا . لكن
برده القانون عنده نظر ويعرف أني لحم ودم ومطلوب
لي أكل .

— لك ضامن يضمنك ؟

— أنا واحد على باب الله .

— تدفع كفاله ؟

— كنت أكلت بها .

— إذا دفعت يا رجل خمسين قرشاً ضمان مالي
يفرج عنك فوراً .

— خمسين قرش؟ وحياة راسك أنا ما وقعت عيني
على صنف النقدية من مدة شهرين . التعريفة نسيت
شكله ، ما أعرف إن كان لحد الساعة (مخروم) من
وسطه والاسدّوه .

فنظرت إلى مساعدى وأملت عليه نص القرار :
« يجبس المتهم احتياطياً أربعة أيام ويجدله
ويعمل له فيش وتشبيه » . إسجبه يا عسكري !
فقبل الرجل كفه وجهاً وظهرأ حامداً ربه :
— وماله . الجبس حلو . نلقى فيه على الأقل لقمة

مضمونة . السلام عليكم !

وخرج الرجل يدب وقد وضع في معصميه القيد .
واطمأن مساعدى واستراح باله بذهاب متهمه ، وطلبت
القضية التالية . فظهر العسكري ومعه آخر وفتح باب
مكتبي على مصراعيه ، وجذبنا إلى داخل الحجرة أكثر
من ثلاثين رجلاً وامرأة وولداً قد شدوا في جبال من
الليف ، إذ لم يجدوا في المركز لكل هذا العدد قيوداً

قصة كوز الزرد
هذه هي حيازة
الاعلى حيازة
على الاطلاق
والى سلاسله

حديدية . فما تمالككت أن صحت لمنظرهم :
— الله أكبر ! مواشى طالعة سوق السبت ؟ حل
الخيال يا عسكرى !

فقال الحارس وهو يحل بأسنانه عقدة حبل :
— فتشنا يا سماعة البك بيوتهم وجدنا فيها
الممنوعات . وباقي غيرهم من أهل الناحية تحت التفتيش
والقبض بمعرفة حضرة الملاحظ وأورطة الهجانة !
فأدرت بصرى فى هؤلاء الآدميين . واستعدت
فى مخيلتى ما قرأته الساعة عن تهمتهم فى الأوراق التى
أمامى وقلت :

— ممنوعات !

فاستدرك الحارس :

— الملبوسات يا فندم .

نعم . إن ما قرأت الساعة هو أن سيارة كبيرة
كانت تحمل أكياساً ضخمة مملوءة بمختلف الملابس
القطنية والصوفية من معاطف وسترو سراويل ، وكذلك

أنواع من الأحذية الجلدية لحساب متجر في القاهرة
من المتاجر الشهيرة ، وكانت تحتاز ليلاً بكل هذا جسر
الترعة المحاذية لدائر الناحية ، فسقط منها في الماء كيس
كبير مفعم بألوان الملابس ، ولبت الكيس في أعماق
الترعة حتى انخفض منسوبها وانحسر الماء عن البضاعة
فهرعت تلك البلدة العارية إلى ذلك الكنز الذي لا يشابه
كل الكنوز . وتسابقت الأيدي إلى الكيس الرائد
في الطين تجذب من بطنه ما تصل إليه ، فإن كان
سرواً أو من الصوف لبس في الحال فوق الجلباب الأزرق
وإن كان معطفاً من الجوخ دخل فيه الرجل (بحرامه)
وإن كان حذاء لامعاً وضع في الأقدام بغير جوارب .
ومضت البلدة تجري في الطرقات فرحة مهللة :
« الكساوى في البحر ، الكساوى في البحر ... » ، إلى أن
رآهم رجال الحفظ واستكثروا عليهم النعمة وعدوها بالنسبة
لهم « ممنوعات » واستغربوا أمرها واستكشفوا سرها ...
ورأيت أول الأمر أن أسألهم جملة ، على أظفر منهم

باعتراف ييسر على مهتي . فألقيت عليهم نظرة شاملة :

— سرقم الملابس ؟

فأجابني من بينهم صوت صميق رزين :

— أبداً والله ما سرقنا ولا نعرف السرقة ؛ البحر

رمى علينا الكيس ، وكل واحد منا طال نصيبه .

فقلت للرجل من فوري :

— نصيبه ؟ ! هو الكيس ملك البحر والاله أصحاب

خواجات !

فأجاب الرجل في صوته العميق الهادي :

— راح من بالنأ أن له أصحاب يا حضرة البك ربنا

يعلى مراتبك ! إرأف بحال الفلاحين المساكين !

— المسألة مسألة قانون . والقانون صريح : إن كل

من وجد شيئاً مملوكاً للغير وحفظه بنية امتلاكه يعامل

معاملة السارق . فهتم ؟

— فهمنا يا حضرة البك . لكن ... بقى ...

الكساوى كانت قدام نظرنا ورمأها البحر علينا

والواحد منا من غير مؤاخذه عريان . . .

— أنت يارجل فاكر الدنيا فوضى ، وإلا فيه

قانون وحكومة !

ويظهر أن الرجل لم يستطع صبراً فقال :

— بقي هي الحكومة لا منها ولا كفاية شرها ؟!

لا كستنا ولا تركتنا ننكس !

— أنا مضطر اني أحبسكم .

— يا جناب البك . أتم قتشتم دورنا وسحبتم

الكساوى منا ؛ والعيال الفرحانة عادت تبكى ، ورجعنا

لأصلنا لا لنا ولا علينا . يبقى الحبس له لزوم ؟ !

— أفرج عنكم بضمن مالى .

— مالى ؟! الفلاحين عرايا يا حضرة النايب !

— تفضلوا من غير مطرود ! دماغى وجعنى

والمناقشة مع أمثالكم ضياع وقت . القانون صريح وأنا

مقيد بنصوص أشد من الجبال الموضوعة فى أيديكم .

المسألة عندى قبل كل شئ مسألة قانون . « يحبس

البلدة « للملاعبة » مركز آخر . فالمأمور يضجر أحياناً من ملاعبة هؤلاء المفلسين وقد تجردوا ، فينتخب تارة نفرأ من خيرة اللاعبين وينتقلون لمنازلة المركز المجاور كما تنتقل فرق كرة القدم .. وتارة يخف المأمور بمفرده أو مع معاون إلى أقرب بلدة يلعب « دورين » ويرجع ، وتارة يستقبلون في ناديهم « منتخباً » قادمًا من بلاد أخرى . هنا في مثل هذه المقارعات الحامية الوطيس بين بلدة وبلدة يتعرض للخطر جيب المأمور ، أعنى مراتب المركز ...

على أنى لم ألبث أن أدخلت الاطمئنان على قلوبهم بقولى لهم : إن المأمور قد ذهب في غالب الظن لعمل يتعلق بقضية تشغل بالنا . فهدأوا وجلسوا لحظة ساكنين أدباً واحتشاماً ، ثم أخذوا يتحدثون ويثرون قليلاً أثناء شرب القهوة ، إلى أن قال أحدهم في نبرة الترحيب :

— ربنا عوضنا خير بتشريف البك النايب ، لأن

حضرة القاضى انقطع عن النادى من زمن . . . بسبب
سوء التفاهم ! . . .

فنظرت إلى المتكلم وقد بدا فى عيني المتسائلة مادعاها
إلى الاسترسال :

— أى نعم ، سوء التفاهم بينه وبين البك المأمور .
وأمعن فى الثرثرة فقال :

— المسألة أصلها خلاف بين السيدات مع بعض .
الست حرم القاضى واقعة مع الست حرم المأمور .
فأطرقت صامتاً ، وظن الحاضرون أن بى رغبة إلى
الإصغاء . . فانطلق أحدهم يقول :

— آخر أخبار أنهم طلّعوا لبعض فوق الأسطح
ونزلوا فى بعض « ردح » من النوع « النضيف » امرأة
المأمور إغاضة فى صاحبيتها راحت لبست سترة زوجها
الرسمية بالتاج « والضبورة » وغطت رأسها من غير
مؤاخذه بالطريحة أم « ترتر » وقالت لها بالصوت العالى :
« أتم حوالىكم إلا قلة القيمة لا يمشى وراكم إلا حاجب

« ربابكيا » نص عمر مكسر صابغ شعره . لكن المركز
كله بالخفر والعسكر تحت أمرنا ، يضرب لنا سلام .
قامت امرأة القاضي نزلت ولبست لها الوسام الأحمر
عهدة الحكومة فوق الفستان البمبي المسخسخ وطلعت
تقول لها : « قطع لسانك وليه سفينة ! أتم صحيح
ما لكم إمارة إلا على غفيرين مغفلين ، لكن من في البلد
كلها يقدر يحبس ويشنق ويقول : حكمت المحكمة
غيرنا ؟ . »

ولقد أحسست شيئاً من الحرج في استماعي إلى
هذا الكلام ، فما إن فرغت من شرب القهوة حتى
وضعت الفنجان على المائدة في هدوء ونهضت في الحال
مسلماً مودعاً وانصرفت .

سرت في الطريق إلى منزلي أفكر . ولقد تمهات
في خطاي ، إذ لم أجد في نفسي رغبة إلى الاحتباس بين
جدران أربعة مع أكدام من الشكاوى المتأخرة أضع
أنفي في تراب ملفاتها . وإن رأسي بعد لمشغول بغياب

المأمور، أترأه قد وجدها؟.. أين ذهب بها إذن؟ والشيخ
عصفور ماذا جرى له؟ العجيب في الأمر أن يستطيع هذا
العصفور أن يختطف هذه الزنبقة ونحن عنه غافلون !
الحقيقة أننا لم نفطن إليه، لقد استطاع أن يختطفها من يد
المأمور في خفة ومهارة . نعم، من يد حضرة المأمور لا من
يدي أنا. ولكن الأعجب من هذا أن تطيعه الفتاة وتذهب
معه راضية . فهو من غير شك لم يكرهها ولم يحملها قوة
واقتراراً . ما سر هذا التأثير وهذا النفوذ العجيب وهو
لا يكاد يعرفها ولم يكن بينهما لقاء طويل؟ أترأه قد أغراها
بالهرب؟ ولكن ما الذي يدعوها إلى الهرب؟ أهى
مجرمة؟ أهذا الجمال الرائع يحرم! أم نحن المجرمون إذ
نظن السوء بالجمال؟ إن من العسير على نفسى أن أتصور
الجمال غير مقترن بالفضيلة . الجمال الحق والفضيلة الحقّة
شيء واحد . ولكن المصائب قمر الدولة عندما سئل عن
الضارب فاه بكلمة واحدة ما زال جرسها الباهت يرن
في أذنى : « ريم » ! ولكن ما بال الفتاة صرخت وذهلت

إذ علمت بالجناية أول مرة ؟ أهو تصنع وتمثيل ؟ لقد
خلعت آهتها قلبي خلعا في تلك الليلة . وما أشك في أن
المأمور وهو على الأقل ذو خبرة بالقرويات قد تأثر مثلما
تأثرت . فإن كان مكر مثل هذه البنية الرقيقة يجوز على
أمثالنا فأحرى بنا أن نوضع في مرابط البقر لأن توضع
أمامنا نفوس الناس نستطلع مجاهلها ونستكشف
أسرارها . وألهتني هذه الخواطر وحملتني قدماي من دون
قصد إلى المستشفى ومررت ببابه الكبير ووقعت عيني
اللاهية على ذلك المنظر المعتاد من الأهالي والنساء
والصبيان الجالسين القرفصاء فلم أحفل بهم . ولكني
لم أكد أغادر هذا الجمع حتى وقفت دهشاً . فلقد
لمحت تحت الجدار على بعد قصبة من الناس الشيخ
عصفور جالسا إلى الأرض وهو مطرق ينكت التراب
بطرف عوده وبجواره الفتاة وقد أسندت رأسها إلى
الحائط تعباً وإعياء أو كآبة وحزناً . فهمت كل شيء .
إنها جاءت المستشفى تسأل عن حال المريض . وإنها

اتخذت من الشيخ الأخضر دليلاً وصاحباً ومعيناً، وكان ينبغي لذكائنا أن يتجه في بحثه إلى هذه الجهة القريبة . ولكن ما العمل الآن ؟ إني بمفردي ؛ ولا سلطة لي بغير رجال الحفظ ألقى إليهم الأوامر . لابد إذن من الذهاب من فوري إلى دار المركز لأبعث أحد العساكر يأتني بهما . وأسرعت في السير قبل أن يعلما برؤيتي لهما فيهربا خوفاً مني . وابتعدت عن المكان وأنا أقول في نفسي : « لاشك أن الشيخ عصفور يعلم الآن كل أسرار القضية . وأنه على الأقل قد اطلع على سر الفتاة وغاص بعينه البراقطين في بحار نفسها العميقة المظلمة . ولكن هل يفضي هذا الشيخ إلينا بشيء ؟ إنه هو نفسه سر مغلق ، ولست أدري أهو حقاً أبه أم خلف هذا الوجه الساذج . . . ؟ ؟ ؟ » وكنت قد بلغت المركز . ورأيت بياض « البوكس فورد » فعلمت أن المأمور قد عاد ، فأسرعت واقتحمت عليه حجرته فألفيته ملقياً على « الكتبة » وقد خلع طربوشه وأمسك القلة الفخار يجرع منها والعرق

يتصبب من جبينه فلم يكدر أنى حتى صاح :
— المسألة وحياتك فيها شغل سحر ! لا بد أن
الشيخ الكلب سحر البنت . تصور أننا من الصبح
لغاية ساعة تاريخه ما تركنا في دائرة المركز غيط ذرة
ولا زراعة قصب ولا ساقية ولا طاحونة ولا كفر
ولا دوار ولا ترعة ولا أرض ولا سما ولا طريق زراعى
ولا جهنم حمرا إلا قلبناها وفتشناها شبر شبر . لو كانوا
انقلبوا طير على الشجر أو سمك في البحر كنا وجدناهم .
لكن المصيبة أنهم ...

فما تمالكنا أن قاطعته :

— المصيبة أنهم على بعد خطوة من هنا يا حضرة
المأمور !!

فوضع المأمور « القلعة » على الأرض ونظر إلى
فاغرافاه :

— إيه ؟

فقلت في شيء من الحدة :

— طير إيه وسمك إيه !! الرجل والبنت قدام باب
المستشفى من ساعتها .

— المستشفى الأميري . ؟ !

— قم يا شيخ قل لواحد عسكري يروح يناديهم
من هناك ، بلاش أمور ...

ولم أتم بقية عبارتي ، فقد نهض المأمور فرحاً قبل
أن يسمع مني . وصاح بصوت جلجل في صحن المركز :
— يا شاويش عبد النبي !

جاء من ناحية الاسطبلات رجل عملاق في قميص
وسراويل بيضاء ورفع يده بالسلام وقال :
— أفندم سعادة البك ، ؟ .

— قم حالاً مع نفرين للمستشفى الأميري ومعكم
قيد حديد ...

فتردد الرجل وقال مقاطعاً :

— « أودة التبني » مفتوحة يا سعادة البك والأنفار
جارين العليق والفرش للنخيل ...

فصاح فيه المأمور :

— يا حصان نفذ الأوامر ! إن شا الله عن الخيل

ما باتوا في ليلتهم . قلت لك قم في الحال .

— حاضر يا أفندم !

وتركت المأمور يفهم مرؤوسه ما يتبع . وانصرفت إلى مكنتي بعد أن أوصيت المأمور أن يلحق بي مع المقبوض عليهما . فأنا لا أحب مطلقاً التحقيق في دار المركز وهي ليست داري . فرب المركز هو المأمور . ولا أَرْضَى لنفسي أن أكون في كنفه أثناء عملي . خصوصاً في هذه القضية وأمام هذه البنية . وذهبت على عجل وأرسلت من يستدعي كاتب التحقيق . ولم يمض قليل حتى كنت في حجرتي جالساً إلى مكنتي أطيل النظر إلى الباب نافد الصبر منتظراً قدوم الفتاة كأنه موعد لقاء . وسمعت تقرأ على باب الحجرة . ودخل المأمور يسألني للفور عن المطلويين فأجبت أني لم أر أحداً بعد . فجلس وهو يقول إنه أرسل من يأتي بهما . وجعل ينظر

هو أيضاً إلى الباب ويفتل شاريه . وجاء كاتبي بأوراقه
ونشرها أمامي . واستعد كل منا . وإذا بجلبة ترتفع في
الردهة وصوت أقدام ثقيلة وصلصلة حديد ، وطرق
الباب علينا ، ثم فتح وألقى بيننا الشيخ عصفور وحده
مكبيل اليدين وخلفه الباشجاويش يحمل له عوده الطويل
فوقع في نفسى قلق . وشعرت بوقع مثله في نفس المأمور .
فقد ابتدر الباشجاويش صائحاً :

— والبنت . ! ! ؟

— وجدنا الرجل وحده فقبضنا عليه يا فندم .

— وحده . ! ! ؟ !

قالها المأمور كما قلتها أنا في نفس الوقت ، وقد
اختلط في نفسينا الأسف بالعجب والغضب . وخرج
المأمور عن طوره قمهض وصرخ في وجه الشيخ
عصفور قائلاً :

— البنت . ! ؟

فلم يبد الرجل حراكاً . وأجاب في هدوء رصين :

— بنت مين ؟

فنظر إليه المأمور نظرة شزراء وقال :

— إنت يارجل شارب حشيش . !؟ شغل الحشيش

أنا أفهمه طيب ! !

وأراد أن يلكمه بقبضته القوية فمنعته من ذلك ،

وأمرت الشيخ أن يدنو منى فدنا فسألته في رفق :

— ريم كانت معك ؟

فأجابني الرجل من غير تردد :

— أبداً .

فأدركت أن عين الرجل البراقة قد لمحتني عند

مرورى بباب المستشفى ، وفهم بذلك ما سيكون فأخفى

الفتاة في الحال ، أو أن الأمر غير ذلك وأن عيني هي التي

خانتني فلم تكن ريم إلى جانبه ، وأن خيالي السابح في

جو هذه الفتاة قد ألقى صورتهما وأثوابها على امرأة أخرى

من الفلاحات المنتظرات بالباب . كل هذا جائز ، ولكن

أين ذهب ريم ؟ ولماذا أتهم بصرى ولا أتهم هذا الشيخ

المخاتل ؟ ومن هو أولاً هذا الرجل ؟ وصحت فيه من
فورى قائلاً :

— تعال يارجل انت !

— محسوبك .

— من أنت ؟

فنظر إلى الرجل نظرة من لم يفهم السؤال . فألقيت
عليه العبارة من جديد في شدة وقوة ، فقال :

— أنا ... أنا عصفور ، ألقط الحَب فوق التراب ،

وأعبد الرب تحت التراب !

— تكلم جد يارجل . اسمك ؟

— عصفور .

وأشار إلى يديه وفيها القيود وصاح :

— أطلقوني ! مَنْ حب النبي يطلقني ...

فأمّرت العسكر بفك القيد من يديه ، وسألته

في صرامة :

— صنعتك ؟

must not be

فتردد الشيخ قليلاً وسكت لحظة ، ثم لفظ آهة
من أعماق قلبه ورجع برأسه إلى الوراء ، وجمدت عيناه
كأنهما تنظرات إلى شيء لا وجود له في عالم الحس
والحقيقة ورفع عقيرته بالغناء :

« أنا كنت صياد

وصيد السمك غيَّة

نزلت بحر السمك

أصطاد لي بنيَّه

وعجبنى شكل السمك

في البحر حواليه

واحد يياض شفتشي

والتانية بلطيه ... »

فقاطعه المأمور صائحاً :

— مفهوم ، مفهوم ! واللى غرقت في الرياح من

سنتين كانت البياض والآن البلطية . ؟؟

فلم يحبه الشيخ ولم يلتفت إليه ومضى يغنى :

« واحدہ بیاض شفتشی

والثانیة بُلطیہ

والثالثة من بدعها

سحرت مراکبیہ »

وتنهد فی العبارة الأخيرة واتخذ صوته فیها نبرة

عجیبة ذات معنی ارتجفت له قليلا ، ونظرت من طرف

خفی إلى المأمور فرأیته قد اختلجت عيناه ، ولكنه تجلد

وتحامل وقال للرجل :

— ومن هم المراكبية ؟ !!

فأطرق الرجل وصمت صمتاً عميقاً . ولست أدري

أهو أيضاً خیال منی أو حقيقة ما اعترانی من شعور بأن

هذا الشيخ قد فهم ... وأنه قد أدرك ما بنا منذ اللحظة

الأولى ...

١٦ أكتوبر ...

لم نستطع أن نعرف شيئاً من الشيخ عصفور، ولم نستطع كذلك أن نقبض عليه، فهو لم يرتكب أمراً يقع تحت نصوص القانون، فأطلقناه، وخطر ببالنا أن ندفع في أثره أحد المخبرين عسى أن نستكشف مخبأ الفتاة... ولكن أين هو المخبر السرى الذى يخفى على الشيخ عصفور؟ إنه يعرف كل رجال الحفظ معرفة أكيدة، وهو الذى قام معهم فى الوقائع مئات المرات وسهر معهم وأكل وشرب وغنى وأنشد، ودلهم على مخابئ الأسلحة. واقتفى معهم آثار المجرمين. إنه يكاد يحسب من أسرة «البوليس». تركناه ينصرف فى سلام. وقد اكتفى المأمور الحانق بأن شيعة إلى الباب بصفعة على قفاه شفى بها غليله، وانصرف بعد ذلك كل منا إلى شأنه: المأمور إلى ناديه، وأنا إلى منزلى حيث خلعت ملابسى وخلوت إلى نفسى، وأخرجت كراسية يومياتى ألقى فيها هذا الكلام الذى لا أجد من أفضى به

إليه في هذا الريف . إن القلم لنعمة لأمثالنا ممن كتبت
عليهم الوحدة ، ولكن القلم كالجواد ينطلق أحياناً من
تلقاء نفسه كالطائر المرح ، وأحياناً يحزن ويثب على
قدميه ويأبى أن يتقدم كأن في طريقه أفعى رافعة الرأس
وهو الساعة يهتز في يدي ويرقص ولا يطيعني كأن شيئاً
يخيفه أو يقصيه عن مروج الأحلام . فنظرت إلى خزانة
ملابسى الخشبية فإذا فأرأسود على رأسها واقفاً يقرض
الخشب بأسنانه ؛ فجعلت أنظر إليه عله يذهب ، فلم
يذهب ؛ ومضت ساعة وهو في مكانه وأنا في مكاني ،
كلانا له عمل من غير شك ، وهو فيما يبدو لي لا يحفل
بوجودي ، ولكني أنا أحفل بوجوده . فزيارته في هذه
الساعة شغلتي عن نفسي . وأخذت ألاحظه وهو يمسح
رأسه وفه يديه الصغيرتين . وجعلت أفكر في هذا
المخلوق الذي لا يفكر فيّ ، وهنا كل الفرق بيني وبينه ؛
وتركت هذا النجار الصغير ذا المنشار الدقيق ، وحملت
كتابي إلى سريري وسدلت « الناموسية » على

وأحكمت ربط أطرافها حتى آمن فضول هذا
الزائر إذا حدثته نفسه بداعية قدمي العارية . ولم
أجد فائدة من « المصايد » فإنها تكلفتني عناء إعدادها
وترقب نتيجتها . وليس أشق على النفس ولا أدعى إلى
إضاعة الوقت من انتظار النتيجة ، إذا كانت الفريسة
حاضرة تحاورنا وتداورنا ولا تقع حتى تقع معها نفوسنا
وفوق ذلك فلکم قنصنا من الفيران ، ومع ذلك لم تنقطع
زيارتها ، فلنتركها إذن تجي وتروح ؛ ولنحملها هذا
الجميل ؛ ولنحرص نحن على أنفسنا وحوائجنا . وأنا
ولله الحمد ليس لي حوائج يخشى عليها غير هذا الأثاث
الرخيص من الخشب الأبيض قد حطمته كثرة التنقلات
من بلد إلى بلد . فماذا يضيره أن تعبث به أسنان صغيرة ؟
ونمت في تلك الليلة بعد العشاء بقليل فإن في اليوم التالي
جلسة القاضي السريع ، وقد كلفت مساعدتي بحضورها
على أن أحضرها معه إلى جواره كي أمرنه على نظام
الجلسات وما يتبع فيها من إجراءات . وجاء الصباح

وذهبت إلى المحكمة فوجدت مساعدى فى غرفة المداولة
متأبطاً مظروفاً به وسامه وهو فى انتظار القاضى . ولم
يلبث القاضى أن جاء فى القطار القادم من القاهرة وخلفه
شعبان الحاجب ، وهما يشندان فى الخطى والقاضى يخرج
من جيبه نقوداً يناولها للحاجب ويقول له :

— اللحم يكون فلاحى من قشرة بيت اللوح ! واضح
للبيض يا شعبان أفندى ؛ والزبدة والجبنه على عهدتك .
أوضع الحاجة فى السلالى « كويس » وانتظرنى بها على
المحطة فى قطر ١١ كالمعتاد . اطلع انت السوق والأفندى
المحضر يقوم بذلك بالعمل !

وانصرف الحاجب سريعاً ، ودخل علينا القاضى
وسلم فى عجلة قائلاً :

— أظن ندخل الجلسة .

وصفق بيديه :

— يا أفندى يا محضر ! حضر الجلسة . . . الجلسة .
وألقي بمعطفه التيل الأبيض السفرى على كرسى ،

وأخرج وسامه الأحمر من محفظته ولبسه في الحال .
وأقبل الفراش بالقهوة فشربها القاضى وهو واقف في
جرعتين وهجم على قاعة الجلسة ، ونحن في أعقابهِ ،
وصاح المحضر :

— محكمة !! —

ونظر القاضى فى « الرول » وقال :

— قضايا المخالفات . محمد عبد الرحيم الدنف ، لم
ينق دودة القطن .. غيايى خمسين قرش . تهاى السيد
عنية ... لم يقدم ابنه للتطعيم .. غيايى خمسين ...
محمود محمد قنديل ، أحرز بندقية بدون رخصة .. غيايى
خمسين والمصادرة . غيايى خمسين .. غيايى خمسين ...
وانطلق القاضى فى الأحكام كالسهم لا يوقفه شىء ،
والمحضر ينادى مرة واحدة حتى يلاحق القاضى ؛ فن لم
يسمع النداء عد غائباً وحكم عليه غائباً . ومن سمع بالمصادفة
فحضر يجرى ابتدره القاضى :

— أنت يارجل تركت غنمك ترعى فى زراعة جارك ؟

— أصل الحكاية يا سعادة البك ...

— ما عندناش وقت لسماع حكايات ... حضوري

خمسين . غيره . عبد الرحمن إبراهيم أبو أحمد . الخ الخ ..

وانتهت المخالفات في مثل لمح البصر ، وجاء دور

قضايا الجنب وفيها سماع شهود ومرافعة محامين وهي

تحتاج إلى شيء من الأناة ؛ فأخرج القاضى ساعته

ووضعها أمامه ، وصاح في المحضر :

— بسرعة القضية الأولى ...

فنادى المحضر :

— سالم عبد المجيد شقرف ...

فنظر القاضى فى الرول وعرف التهمة والتفت إلى

المتهم وهو لم يجتز بعد عتبة باب الجلسة وصاح فيه :

— ضربت الحرمة ؟ كلمة واحدة . . . قل من

عندك !

— يا سعادة البك فيه راجل يضرب حرمة !

— ممنوع الفلسفة . كلمة ورد غطاها . ضربت ؟

نعم أولا ؟

— لأ .

فصاح القاضى فى المحضر :

— أنكر التهمة . هات الشاهد .

فحضرت الحرمة المضروبة تتعثر فى « ملسها »

الأسود الطويل ، فلم ينتظر القاضى حتى تدخل الجلسة ،

وصرخ فيها :

— ضربك ؟

— أصل ياسيدى القاضى ربنا يخليك ...

— مفيش أصل . ضرب والا لأ ؟ هى كلمة لا غير

— ضرب .

— كفاية . واستغنت المحكمة عن بقية الشهود ..

كلامك يامتهم .

فتتنحى المتهم وجعل يدافع عن نفسه والقاضى

مشغول عن سماعه بكتابة الحثيات ومنطوق الحكم على

الرول بالرصاص إلى أن فرغ فرفع رأسه ونطق بالحكم
دون أن ينظر إلى المتهم أو ينتظر بقية دفاعه .

— شهر مع الشغل . غيره ...

— يا سعادة القاضى أنا عندى شهاد . لا ضربت

ولا بطحت . الحكم ظلم . ظلم يا ناس .

— إخرس ! اسجبه يا عسكري !

فسجبه العسكري بعيداً . ونوديت القضية التالية .

فخضر رجل هرم مقوس الظهر أبيض اللحية يدب على
عصا فابتدره القاضى :

— بددت القمىء المحجوز عليه ؟

— القمىء قحى يا سعادة القاضى وأكلته أنا والعيال

— معترف . حضورى ، حبس شهر مع الشغل .

— شهر ! يا مسلمين ! القمىء قحى . زراعتى ...

مالى ...

فسجبه العسكري . وهو ينظر بعينين زائفتين إلى

الحاضرين كأنما هو لا يصدق أن الحكم الذى سمع حقيقى .

إن أذنه لا شك قد خاتته ، وإن اليقين عند الناس
الحاضرين . فهو لم يسرق قمح أحد ، لقد جاءه المحضر
حقيقة فحجز قمحه وعينه حارساً عليه حتى يسدد مال
الحكومة ، ولكن الجوع اشتد به وبيعاله فأكل قمحه
فمن ذا الذي يعدّه سارقاً ويعاقبه عقاب السارق ؟ إن هذا
الشيخ لا يمكن أن يفهم هذا القانون الذي يسميه لصاً
لأنه أكل زراعته ، وثمره غرسه . إن هذه الجرائم التي
اخترعها القانون اختراعاً ليحمى بها مال الحكومة
أو مال الدائنين ليست في نظر الفلاح جرائم طبيعية
يحبسها بغريزة الساذجة . إنه يعرف أن الضرب جريمة
والقتل جريمة والسرقه جريمة . لأن في ذلك اعتداء
ظاهراً على الغير ، وأن الرذيلة الخلقية فيها بديهية جليلة .
ولكن التبديد . . . كيف يفهم أركانه وحدوده ؟ إنما
هو جريمة قانونية يظل يتحمل وزرها دون أن يؤمن
بوجودها ، وأسلم الشيخ أمره لخالقه . وتسلمه الحراس
وهو يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله » . ! ونوديت

القضية التالية ، ولم يكذ المحضر يلفظ اسم المتهم حتى كان القاضى قد وزن « الدوسيه » فى يده فوجده ثقيلاً والشهود كثيرين ؛ ونظر إلى ساعته ، ثم نظر إلى منصة المحامين فلم يجد مع هذا المتهم محامياً فعلمت أنه يريد أن يؤجل القضية ، ولم يخب ظنى ، فقد التفت إلى النيابة قائلاً :

— النيابة طالبة التأجيل ؟

فنظر مساعدى إلى مرتبكا . فأسرعت قائلاً :

— بالعكس ؛ النيابة تعارض فى التأجيل .

فأخفى القاضى امتعاضه وقال فى سبيله همس :

— ننظرها والسلام . هات الشهود ...

غير أن القاضى ذكر أن هذه القضية إنما هى قضية

« معارضة » فى حكم غيابى سبق فيها . وينبغى أن تقدم

المعارضة فى خلال ثلاثة أيام . فقرأ فى الحال التواريخ

وصاح من فوره فى المتهم متنفساً الصعداء :

— القضية مرفوضة شكلاً يا حضرة المتهم

لأن المعارضة تقدمت بعد الميعاد .

فلم يفهم الفلاح ذو « العرى » هذا الكلام . وقال :

— والعمل إيه يا حضرة القاضي ؟

— العمل أن الحكم السابق بحبسك ينفذ عليك .

إحجزه يا عسكري !

— الحبس بالزور يا حضرة القاضي ؟ أنا مظلوم .

لا قاضى سمع كلامى ولا حاكم طلب سؤالى لحد الساعة !

— إخرس ! معارضتك يا رجل بعد الميعاد ؟

— وماله ؟

— القانون يا رجل انت محدد ثلاثة أيام .

— أنا يا سيدى القاضى غلبان لا أعرف أقرأ ولا

أكتب . ومن يفهمنى القانون ويقرينى المواعيد ؟

— يظهر أنى طولت بالى عليك أكثر من اللازم .

أنت يا بهيم مفروض فيك العلم بالقانون . إحجزه

يا عسكري !

ووضع الرجل بين المحجوزين وهو يلتفت يمنة ويسرة

إلى من حو اليه ليرى أهو وحده الذى لم يفهم ؟ !
وجعلت أتأمل لحظة سحنة هذا المخلوق الذى

يفترضون فيه العلم بقانون « ناپليون » ! !

وانتهت الجلسة آخر الأمر . ووثب القاضى ناهضاً
وعاد إلى حجرة المداولة ، وخلع وسامه على عجل ، فإن
قطار العودة لم يبق على قيامه غير سبع دقائق . ولكن
القاضى تعود الركوب فى آخر لحظة ، فهو فى إسرعه لم
يفقد ثباته الداخلى ولا اطمئنانه ؛ وتناول معطفه الأبيض
ووضعه على ذراعه وسلم علينا وانصرف إلى المحطة فى شبه
ركض . وإذا كاتب النيابة يدخل مسرعاً ببعض الملفات
وخلفه عسكري يسحب مسجوناً والكاتب يصيح :
— القاضى مشى ؟ عندنا معارضة فى أمر حبس

معروضة على حضرة القاضى .

فقلت له فى الحال :

— إلحق القاضى على المحطة قبل ما يركب .

فصاح الكاتب فى العسكري :

— هات المسجون يا شاويش واطلع على المحطة .
وهرول الجميع : الكاتب والجاويش والمسجون
في ذيل حارسه مربوطاً في السلسلة كأنه كلب . وجروا
كلهم خلف القاضي الراكض . وهذا منظر مألوف
لأهل البلد في يوم هذه الجلسة . فإن المعارضات المتأخرة
والتجديد لأوامر الحبس تنظر وتمضى في « بوفيه »
المحطة قبل قيام القطار بدقيقتين ، ويتحرك القطار وقدم
القاضي ما زالت على الرصيف والأخرى في العربة
الأخيرة وهو يقول :

— رفض المعارضة واستمرار حبس المتهم .
فيدون الكاتب منطوق هذا الحكم فوق « رخامة »
مائدة البوفيه ، بينما يتسلم القاضي من شعبان الراكض
خلف القطار المتحرك « سلالى » البيض والزبد واللحم ،
والحاجب يصيح بأعلى صوته :

— اللهم يا بك من بيت اللوح وبيت الكلاوى !
وصعدت بعد الجلسة إلى مكنتي أنا ومساعدى

وقد بدا الوجوم على وجه المساعد ، فقد كان يحسب أن النيابة ستقوم في كل قضية تشرح وجهة نظرها في الإتهام . ولقد كان أعد لذلك مرافعات طويلة مكتوبة بخط واضح جميل على « أفرخ فولسكاب » مسطرة ، فإذا هو يخرج بها من الجلسة مطوية كما دخل بها ، وإذا الأحكام قد انطلقت انطلق القطار في بساطة وسرعة ، والعدالة قد جرت مجراها في طرفة عين كأنها جواد السباق من دون حاجة إلى هذا التحليل والشرح والاستشهاد والاستدلال الذي سهر ليلاه ليحشوا به هذه الأوراق .

وخلوت أخيراً في مكنتي . ودخل على رئيس القلم الجنائي يريد النيابة . وفتح مظاريفه أمامي كالمعتاد في كل صباح . وما كدنا نفض غلافاً أو غلافين حتى سمعنا ضجيجاً خارج الحجرة وصوتاً مدوياً عرفت فيه صوت الشيخ عصفور ، فبعثت من يسأل عن خبره ، فقليل لي : إن المركز أرسله اليوم مقبوضاً عليه بعد أن حرر له محضر

تشرد . فأدركت أن المأمور ما زال يعتقد أن هذا الشيخ هو الذي خطف البنت . وأن حقه عليه ما زال متأججاً وأنه لجأ إلى وسائل الإدارة ليقوع به . إن فكرة اتهام الشيخ عصفور بالتشرد فكرة نيرة لا يمكن أن تخطر إلا بذهن المأمور المغيظ . والحقيقة أن هذا الشيخ متشرد لا أكثر ولا أقل . وهو من هذه الناحية يصلح فريسة لنصوص القانون التي بين أيدينا . ولكن العجيب أن يسكت عنه المركز كل تلك الأعوام التي مضت ولا يفتن إلى أمر صناعته إلا الساعة . إن هذه الوسيلة لم تعجبنى كثيراً ولم ترض ضميري القضائي ؛ فإن نصوص القانون لا ينبغي أن تكون أسلحة في أيدينا لضرب بها من نريد ضربه في الوقت الذي نختاره . إن القبض على الشيخ عصفور اليوم هو من غير شك مسألة انتقامية . إن المأمور وقد رأى هذا الرجل يفلت من تهمة خطف الفتاة دبر وفكر في طريق آخر لا يستطيع منه الإفلات . هذا أسلوب الإدارة الذي لا يحسن أن يسلكه رجال

القضاء ؛ وعزمت في نفسى أن أفرج عن الرجل ،
ولكنى أرجأت النظر في أمره حتى أفرغ من « توريد
البوستة » التى أمامى . فلقد قدم لى عبد المقصود أفندى
مظروفاً أصفر ضخماً علمت أن فيه « قضايا جنایات »
مرسلة إلینا من الرئاسة لدرسها والمرافعة فيها أمام محكمة
الجنایات المنعقدة فى هذا الشهر فى عاصمة المديرية التى
نعمل فى دائرتها . فألقيت نظرة على هذه القضايا فوجدتها
تحوى مئات الصفحات . وهل لى رأس يتسع الآن لكل
هذا ؟ لا شئ ينفرنى من عمل النيابة غير المرافعة فى
قضايا الجنایات . فإن من العسير على ذاكرتى الضعيفة
أن تحيط بكل تلك التفاصيل التى تتكون منها الجريمة
كى تبسطها بعد ذلك فى نظام وترتيب وهدوء أمام
مستشارين ثلاثة عابسين ، ومحامين متربصين ، وجمهور
يشاهد ويحكم لا على لب الموضوع ، بل على مدى اتقان
الحركات والإشارات ، ورنين الصوت فى القاعة ، ومهارة
الإلقاء ، والضرب باليد فوق المنصة . إنى بطبعى لا أصلح

إلا للملاحظة الناس خفية يتحركون فوق مسرح الحياة ،
لأن أن يشاهدني الناس ممثلاً بارعاً قد سلطت على وجهه
الأضواء . إن هذه المواقف تعمى بصرى ، وتذهب
لبى ، وتطير ما فى ذاكرتى ، وتفقدنى ذلك الهدوء
النفسى الذى أرى به أعماق الأشياء . لذلك ما ترددت
وأمرت بإحالة هذه القضايا على المساعد ، فهو ما زال فى
تلك السن التى يبهى فيها الإنسان ويعجب بهذه المواقف
والمظاهر ؛ وقد يكون له من حسن الاستعداد لهذا
العمل ما يجب على أن أوجهه إليه . وإنى فوق ذلك أتيح
له فرصة الإقامة أياماً فى عاصمة المديرية حيث يجد فى
ملاهيها ومشاربها ما يرفه عنه ويلطف من أثر الوحدة
والضيق فى هذا الريف الصامت . وأعجبتنى هذه الحجج
ورأيتهما كافية لإقناعى بوجوب إزاحة هذه القضايا
الثقيلة عن كاهلى . وناولنى رئيس القلم الجنائى بعد ذلك
مظروفاً آخر صغيراً قرأت عليه بالخبر الأحمر كلمة «سرى»
فقلت فى نفسى : « تلك ملحوظة من النائب العام » .

فأسرعت بفضه فإذا هو بلاغ من مجهول أرسل إلى النائب
العمومي رأساً في القاهرة ، فأحاله على لإجراء اللازم فيه
فنشرته في يدي وقرأته بإمعان ، ولم آت على آخره حتى
كان قد استولى على العجب ، وأطرقت لحظة أفكر ؛ ثم
أعدت النظر فيه وتمهلت في قراءة سطور هذه :

« سعادة النائب العمومي بمصر دام

نعرفكم بأن الحرمة زوجة قمر الدولة علوان

المضروب الموجود « بالإسبالية الميري » كانت ماتت

من سنتين مخنوقة وتستتر عليها حلاق الصحة من أجل

الرشوة وأجرى دفنها بدون علم الحكومة . واسألوا

زوجها علوان وأختها البنت ريم عن الذي خنقها .

وأسباب الجريمة معلومة ولا تخفى على فطنتكم إذا كلتم

خاطركم بالتحقيق بنفسكم وإنكم تكشفون أسراراً خطيرة

وتضربون على أيدي الأشرار . « وتوضعون » العدل في

مجرأه . والعدل أساس الملك . وقد قال الله عز وجل في

كتابه العزيز : (وإذا حكمت بين الناس أن تحكموا

بالعدل) صدق الله العظيم . « فاعل خير »

١٧ أكتوبر . . .

فكرت ملياً في أمر ذلك الخطاب . من ترى
يكون مرسله المجهول ؟ الأسلوب ينم عن أن صاحبه
أزهري فسد . هذه الآية القرآنية وهذا التوقيع
لا يصدران إلا عن هذا الصنف الذي يستغل علمه القليل
وجهل الناس المطبق في الريف ، فيعيش على تحرير
البلاغات المأجورة وبذر الشقاق بين الأسر والأفراد .
ولكن في هذا الخطاب على أي حال وقائع تستدعي
التحقيق . ولو صح ما جاء فيه من أن زوجة قمر الدولة
قتلت خنقاً لخرجنا من الأمر بجنائية تمخضت عن جنائية !
لا يهمنا الآن البحث عن صاحب الخطاب بقدر ما يهمنا
التأكد من صحة الإتهام . لا بد إذن من فتح المقبرة
واستخراج جثة زوجة المصاب وعرضها على الطبيب
الشرعي . وقد اتجه تفكيري كله هذا الاتجاه فلم أشغل
ذهني بما ورد عن ريم في هذا البلاغ وما يمكن أن يلحقها
من شر . ذلك أن كل شيء مترتب على نتيجة فحص

الجثة . وكنت قد بادرت فأخطرت الطيب الشرعى
ببرقية ، وقت بما يلزم من إجراءات لفتح المقبرة ،
فعينت عليها الحراس يسهرون الليل بجوارها حتى
لا يعيث بها عابث . وأرسلت فى طلب «اللعاد» وكنت
قد اتصلت تليفونياً بالمركز عقب قراءتى ذلك الخطاب
لأخطر الأمور ، فقبل لى إن الأمور ركب ومضى إلى
اجتماع خطير معقود فى المديرية برياسة المدير وحضر
إلى للفور المعاون يقول :

— سعادتك اطلعت طبعاً على جرائد المساء ؟

— أبداً .

— فى البلد أزمة وزارية .

فأدركت فى الحال سر اجتماع المديرية ، وعلمت
أن رجال الإدارة منذ الساعة لن يكون لهم عقل
ولا فكر فى غير تنسم هوى الوزارة الجديدة ، حتى
يعدوا أنفسهم للميل معها كما مالوا مع غيرها . وهذا
الميل يبدو أكثر ما يبدو فى التجهى السريع للعمد

والأعيان الموالين للوزارة الآفلة ، والابتسام الوديع
لأنصار الوزارة المقبلة . ولم أبد أية ملاحظة للمعاون فأنا
رجل قضاء لا ينبغي لى الكلام فى السياسة ؛ ومهما
تغيرت الوزارات والأحزاب فإن القانون هو القانون .
والتفت إليه أخيراً وقلت فى هدوء :

— أظن حضرتك تقوم معنا بدل المأمور .

— الظروف الحاضرة تمنعنى من ترك المركز .

لكن ملاحظ النقطة موجود هناك فى خدمة سعادتك
فتركته ينصرف إلى مركزه ، وأمرت بإعداد
السيارة ، وجلست أنتظر الطبيب الشرعى وقد أجاب
على برقيتنا بإشارة تليفونية أنه حاضر اليوم . ودخل على
عبد المقصود أفندى وأشار يده إلى « النتيجة » المعلقة
بالحائط ، وذكرنى بضرورة تفتيش سجن المركز ؛
فالنيابة عليها أن تقوم بهذا التفتيش فجأة مرتين فى كل
شهر على الأقل . فلم ألتفت إليه وأمرته أن يذكرنى فيما
بعد ؛ فشئى خطوتين ثم عاد وغمز بعينه :

— فيه إشاعة أن الوزارة الجديدة تألفت وناوية
تجرى انتخابات جديدة .

— وماله ؟

— غرضى يعنى .. قبل سجن المركز ما يزدحم ..
فلم أنبس بكلمة ، وتشاغللت بتقليب أوراق القضية
التي نقوم من أجلها ؛ ورأى رئيس القلم الجنائى أنى لن
أجيب فانصرف متردداً متباطئاً . وأدركت من هياته
أنه لم يأت من تلقاء نفسه ؛ فناديته فرجع ، فقلت له فى
ابتسامة التخايث :

— كاتب ضبط المركز كلمك فى التليفون ؟

فأجاب للفور :

— طبعاً . ودفاتر السجن مسددة جاهزة ...

ومحضر التفتيش مكتوب . وكل شىء تمام ، ولا باقى

غير إمضاء سعادتك ... والحكاية كلها قيمة ربع ساعة

ونكون اتنهينا من مأمورية تفتيش السجن ..

فنظرت إليه شزرًا

— شيء جميل ! تفتيش فخائي مضبوط يا عبد المقصود

أفندى ... ؟

فارتبك الرجل قليلاً ثم قال :

— أنا غرضي راحة سعادتك من جهة ، وعدم

إحراج المركز في الظروف الحاضرة من جهة أخرى ..

— طيب . طيب ...

وأسرعت فأقفلت باب الموضوع . فقد سمعت

تقرأ على باب حجرتي ، وأبصرت من خلفه الطبيب

الشرعي بحقيقته الصغيرة يستأذن في الدخول . فنهضت

في الحال واتجهت إليه وأدخلته مرحباً . وطلبت له فنجاناً

من القهوة . ثم تجاذبنا الحديث في الأحوال العامة .

فأخبرني باختصار ما سبق أن علمته من عبد المقصود

أفندى من أن الوزارة الجديدة قد تسامت فعلاً مقاليد

الأمر ، وأنها تعد العدة لانتخابات جديدة . ولم نعلق

على هذه الأخبار بشيء فكلانا يجهل ميول الآخر .

وكلانا يخشى أن يظهر رأييه الدفين . وبدأنا لوقتنا الكلام

في العمل وفي القضية التي بين أيدينا ، وأخبرت الطبيب
بظروفها في عبارات سريعة . واستقر الرأي على المبادرة
بالإنتقال إلى المقبرة . فقمنا إلى السيارة وانطلقنا ولم
نقف حتى بلغنا مكاناً قصيماً في المزارع قد تجمعت فيه
تحت ظل نخلتين أو ثلاث بضع مقابر من الطين والآجر
قد علتها «شواهد» طويلة سمراء كأنها رؤوس العفاريث
فزلنا . وهرع لاستقبالنا الحراس . هبوا فجأة من مراقبهم
لمرآنا وخرجوا علينا ، بعضهم يهبط من أعلى «مرتبة»
قد وضعت فوق المقبرة كما يوضع الهودج فوق الناقة ،
وبعضهم يثب من على حصير فرش بين يدي هذه
المقبرة كأنهم قردة تثب من حجر أمها ؛ وسألت عن
حضرة ملاحظ النقطة فأشاروا إلى الطريق الزراعي
فرايت فتى في ملابسه العسكرية يقبل متبختراً على
حصانه الأشهب . ولم تمض لحظة حتى بدأنا العمل ؛
فأمرنا اللحد بفتح المقبرة فأعمل في الحال فأسه ومعوله
في البناء الذي يخفى المدخل . وسألني الطبيب الشرعي

عما إذا كنا استدعينا أحداً من أهل المتوفاة يستطيع أن
يتعرف على الجثة وكفنها ؛ فأجبتة إنا لا نعرف للمتوفاة
غير أخت قد هربت واختفت . فاقترح إيفاد الملاحظ
إلى القرية يحضر لنا امرأة من الجيران ممن حضروا
غسلها أو دفنها . فقام الملاحظ للفور لما انتدب له .
وأمن اللحد في الدق والهدم حتى جرح صدر المقبرة
جرحاً بالغاً وقام عنها وهو يقول :

— الباب من غير مؤاخذه من ورا ...

وتناول أدواته وذهب إلى الناحية الأخرى وجعل
يوسعها ضرباً وطرقاً . فصاح به الطبيب الشرعى :

— هي دى يارجل انت مقبرة توت عنخ آمون ؟
تغلط في المدخل وأنت لحاد الناحية !

— أصل يا حضرة الدكتور مضى عليها زمن مقفولة .
وضرب ضربتين انفتح تحتها المدخل . وزحف
الرجل على يديه وقدميه إلى داخل المقبرة وخرج يجذب
شيئاً ملفوفاً في « قماش » لا لون له من القدم تكاد

أطرافه تتفتت في أصابعه ؛ ووضعته تحت أنظارنا
وهو يقول :

— شوفوا هي دي « بلا قافية » الحرمة ؟
فكشف الطبيب الشرعى عن تلك العظام النخرة
ونظر فيها ثم قال للحاد :
— إرجع بها يا حمار . دي جثة رجل .
— راجل ؟

واختفى اللحاد بالجثة في قلب المقبرة وعاد فظهر
بجثة أخرى ما كاد يفحصها الطبيب حتى وجدها هي
كذلك جثة رجل . وهكذا ظل يعرض علينا الجثث التي
وقعت عليها يده فإذا كلها لرجال . فصاح اللحاد مغنيظاً :
— أمال النسوان راحت فين يارجاله ؟

فقال له الطبيب في هدوء :
— حضرتك بالإختصار غلطت في المقبرة .
ثم نظر إلى المقبرة التي بجوارها وقال له :
— افتح دي .

فذهب اللحد بأدواته حيث أشار إليه الطبيب
بينما أنزل الحراس « متاعهم » من فوق المقبرة الأولى
وهم يتهامسون :

— بقى كنا را كين غلط !

وفتحت المقبرة الثانية . وما كاد اللحد يزحف إليها
ويختفي فيها حتى ظهر الملاحظ عائداً وخلفه امرأة تخفى
وجهها بطرف طرحتها السوداء وترفع عقيرتها مولولة :
— ياللى كنت منورة الحارة !

فسد الملاحظ فهمها فى الحال منتهراً :

— اخرسى يا ولية !

واقترب الطبيب الشرعى من المرأة وحادثها فعلم
منها أنها كانت جارة للمتوفاة وأنها حضرت جهازها .
— اسمى ياستى . الميتة كفنوها قدامك ؟

فتنهدت المرأة وقالت :

— قدامى ياسيدى ، وبقيت بعيد عنك أطم
وأرقع بالصوت .

— المهم عندنا مش اللطم ، كفنوها في كم « درج » ؟

— في عين العدو ثلاث « أدراج » : درج مرمر

ودرج كزمير ودرج حرير أخضر ...

وخرج اللحد وقتئذ يجذب من داخل المقبرة جثة

فخص الطيب كفنها وقد ذهب لونه بفعل الزمن إلا بقية

أخضرار خفيف في أطرافه ينم عن حقيقة لونه الغابر ،

فأمر من الفور بحمل الجثة ووضعها على « لوحين » من

الخشب نصباً سريعاً على هيئة مشرحة تحت ظلال شجرة

من السنط ، وطلب إبعاد الحاضرين فرفع الملاحظ عصاه

الخيزران الرفيعة في يده وفرق الناس صائحاً :

— بعيد . بعيد ...

وكشف الطيب الكفن في احتياط . وما كاد

ذلك الهيكل العظمى المسجى يظهر للعيان حتى سمعت

خلفي همساً وهممة ، فاستدرت فأبصرت سائق السيارة

مختفياً خلف جذع الشجرة صاحب الوجه بارز العينين

يشاهد هذا المنظر ولا يملك نفسه :

— لاحول ولا قوة إلا بالله ! إنا لله وإنا إليه راجعون !
ولمحه الطيب فانتهره وأمره بالإبتعاد . وصحت
أنا كذلك في السائق صيحة انصرف بعدها إلى سيارته
وقبع فيها . غير أنى تأملت قليلاً أمر هذا السائق . . .
ما الذى روعه ؟ أهو منظر العظام فى ذاتها ، أم فكرة
الموت الممثلة فيها ، أم المصير الآدى وقد رآه أمامه رأى
العين ؟ ولما ذالم يعد منظر الجثث أو العظام يؤثر فى
مثلى وفى مثل الطبيب ، وحتى فى مثل اللحد أو الحراس
هذا التأثير ؟ يخيّل إلى أن هذه الجثث والعظام قد فقدت
لدينا ما فيها من رموز . فهى لا تعدو فى نظرنا قطع
الأخشاب وعيدان الخطب وقوالب الطين والآجر .
إنها أشياء تتداولها أيدينا فى عملنا اليومى . لقد انفصل
عنها ذلك « الرمز » الذى هو كل قوتها . نعم . وماذا
يبقى من كل تلك الأشياء العظيمة المقدسة التى لها فى
حياتنا البشرية كل الخطر لو نزعنا عنها ذلك « الرمز »
أبقى منها أمام أبصارنا اللاهية غير المكترثة غير جسم

مادى حجر أو عظم لا يساوى شيئاً ولا يعنى شيئاً .
ما مصير البشرية وما قيمتها لو ذهب عنها « الرمز » ...
« الرمز » هو فى ذاته كائن لا وجود له . هو لاشئ ،
وهو مع ذلك كل شئ فى حياتنا الآدمية . هذا
« اللاشئ » الذى نشيد عليه حياتنا هو كل مانعك من
سمو تختال به وتمتاز على غيرنا من المخلوقات . هنا كل
الفرق بين الحيوانات العليا والحيوانات الدنيا .

وقطع الطيب سلسلة تفكيرى بمقص طى فى يده
ذات القفاز الجلودى الشفاف يفحص به العظام قائلاً :
— امرأة من غير شك .

ومضى فى عمله وهو يقول :

— الأضلاع سليمة ، والجمجمة : الطاسة سليمة ،
والعظم اللامى ...

وهنا نظرت إليه فى انتباه . فالعظم اللامى فى العنق
هو الدليل الناطق على حدوث الجريمة . فإن كسره معناه
أن الخلق قد وقع . وإن كل ما يهمنى فى الحقيقة من

استخراج الجثة والكشف عنها هو فحص العظم اللامى
والتحقق من سلامته . ولم يمهلى الطبيب حتى أسأله
وصاح وهو يربنى هذا العظم بين أصابعه :
— مكسور .

هذه الكلمة كانت كافية لتحديد موقفى من الأمر .
إن ما جاء فى البلاغ المجهول المصدر حقيقى إذن . وماذا
أنتظر بعد ذلك . وصحت فى الطبيب :
— اتھينا .

وعزمت على العودة مسرعاً للبدء فى تدبير ما ينبغى
للوصول إلى معرفة سر هذه القضية الجديدة ، فهى
من دون ريب مفتاح الأولى . وفرغ الطبيب الشرعى
من أمر الجثة وأعادها اللحد أماناً إلى مقرها وسد عليها
كما كانت . وأنا صامت فى مكانى أفكر فى من يكون الخاق
لهذه المرأة . أهو زوجها المصاب ؟ وما الذى حملة على
ذلك ؟ وأختها ريم ما شأنها فى الأمر ؟ أتراها تعلم بهذه
الجريمة ؟ وأين ريم الآن ؟ إن وجودها اليوم فى التحقيق

ذو أهمية كبرى . ولكن كيف نعتز عليها ؟ إن الشيخ
عصفور يعلم مقرها ، أو على الأقل يستطيع أن يعاوننا في
البحث عنها . إذن فلنجعل الشيخ عصفور مبدأ لخط
السير الجديد . فلا أقنعهُ أنا بوسائل بعيدة عن طرق
الإدارة العنيفة . إن مثله قد يؤخذ بالحيلة والهدوء . ترى
لو أفهمته مثلاً أن في إمكانى أن أزوجهَا منه . . . وأعجبتني
الفكرة وعزمت على تنفيذها . وركبنا السيارة عائدين .
ومررنا في طريقنا بالقرية ، فإذا أصوات حزن وولولة
نساء ترتفع من « دوار » العمدة . فقلت وأنا أقف
السائق بإشارة :

— العمدة مات ؟

وأطلت من نافذة السيارة ، فإذا أنا أمام منظر
لم أفهمه أول الأمر . رأيت شيخ الخفر ووكيله وبعض
الخفراء يحملون شيئاً في أيديهم ، ومن حولهم جموع
الرجال والنساء والصبيان يهللون ويكبرون والنساء
يزغردن كما يفعلن في الأفراح وفي أيديهن الدفوف

يضر بن عليها . وتأملت جيداً ما يحملونه وتأمل معي
الطبيب الشرعي دهشاً فرأينا آلة تليفون حكومية من
طراز تليفونات المراكز . فصاح الطبيب في عجب :
— التليفون له زفة كأنها زفة عروسة .

ومر بقربنا خفير نظامي فأشرت إليه فاقترب
وسأله عن الخبر فأجابني أنه قد صدر اليوم أمر برفض
العمدة الحالي وتعيين آخر مكانه من الأسرة المنافسة
في القرية . ففهمنا كل شيء ، ومال على الطبيب يقول
صاحكا :

— يظهر أن تليفون الحكومة عند العمدة في
مقام الصولجان .

هذا صحيح فيما أرى ، إنه مظهر السلطة والحكم
وأداة الاتصال بالحكومة ، وإن خلعه من دار العمدة
« المخلوع » إنما هو « رمز » لزوال السلطة ، وأن هذا
العويل المرتفع من « دوار » العمدة القديم ، وهذا البكاء
الذي يشيع به التليفون الخارج من بيته لدليل على فداحة

المصيبة ؛ وهذه المصيبة ككل مصيبة لها وجهها الآخر
الباسم يطل على ناحية أخرى ؛ وإن دار العمدة الجديد
الذى يستقبل التليفون الداخل عليه بالزغاريد والدفوف
لدليل أيضاً على مبلغ السعادة والهناء . هنا « الرمز »
كذلك فى شكل « تليفون » من الصلب والخشب
قد لعب دوراً مهماً على مسرح هذه القرية الوادعة .
وانطلقت بنا السيارة والطبيب صامت فى بعض
الطريق . وأخيراً التفت إلى وقال :

— يظهر أن العمدة الجديد من محاسيب الوزارة
الجديدة .

فقلت له : إن هذه القرية ككل قرية اليوم فى
مصر بها عائلتان قويتان أو أكثر تتنافس العمدة وكل
منها ينتمى إلى حزب من الأحزاب التى تتنازع الحكم
ولماذا تريد أن يكون الحال فى القرية غيره فى الدولة ؟
وهل القرية إلا مصغر الدولة ؟

١٨ أكتوبر ...

كان أول ما فعلت عقب رجوعي إلى مكنتي أن
أرسلت في طلب الشيخ عصفور ، فحضر أمامي مطرقاً
صامتاً فابتدرته :

— البنت ريم تعجيبك ؟

فرفع رأسه ونظر إلى نظرة أحسست أنها تفذت
إلى أعماق نفسي ، ثم عاد فأطرق ولم يجب .

فقلت له :

— أنا مستعد أطلب المأذون وأعقد عليك وعليها حالاً .

فلم يبد حراكاً ، فضيت أقول :

— لو كانت موجودة هنا كنت حالا

وجعلت أستحثة على الكلام فلم يخرج عن صمته .

وأخيراً ترنم بصوت كالهمس لكنه واضح النبرات :

نهيتك ما انتهيت

والطبع فيك غالب

وديل الكلب ما ينعدل

ولو علقوا فيه قلب
فما تمالك أن صحت :

— إخرس يا بهيم !

وأسرعت بطرده ، وقد تبين لى أن لا فائدة ترجى
من مثله . ورأيت أن أسأل حلاق الصحة ؛ فاستدعيته
وسألته فى أمر المرأة المخنوقة وكيف صُرح بدفنها بدون
إذن النيابة ، فقال من فوره :

— وشرفك يا سيدنا البك ما أعرف إن
كانت مخنوقة أو محروقة . حضرة حكيم الصحة أمر
بالدفن كالمعتاد .

— بدون توقيع كشف ؟

— لو كنا نقعد نكشف يا سعادة البك على كل
متوفى كان زماننا توفينا من بدرى .

— بقى بالاختصار لآحد كشف ولا نظر ...

— الجارى عليه العمل يا سعادة البك أن حلاقين
الصحة فى الجهات تبلغ الدكتور المفتش بالتلفون . وحضرته

قاعد على مكتبه هنا ما عليه إلا أنه يسأل في كل حالة عن
سبب الوفاة نرد عليه في التليفون : ماتت يادكتور
موتة ربها يقوم يقول : ادفن ، ادفن ، ادفن . . .
— ما شاء الله ، ما شاء الله ، ما شاء الله !

ولم أرفائدة كذلك من البحث مع هذا الحلاق فانا
أدرى الناس بحلاقي الصحة . إن كل مهمتهم أن يقبضوا
من أهل المتوفى خمسة قروش ويحصلوا لهم على الإذن
بالدفن دون أن ينظروا في وجه جثة أو ينتقلوا إلى منزل
متوفى . إنهم إلا سمسرة « دفن » ، حتى مع فرض وجود
النزيه منهم الذي يريد القيام بواجبه فيذهب للكشف على
الجثة ، ماذا يستطيع مثل هذا الجاهل أن يستكشف ؟
إنه سيرى رجلاً أو امرأة قد فاضت روحها وليس بها
إصابات ظاهرة . فكيف يعرف أن الوفاة مشتبه في
أمرها ؟! إن « نظام » حلاقي الصحة نفسه ، هذا النظام
الذي لا تعرفه أية دولة على بساط الأرض هو موطن
الداء . ومثله عندنا نظام « الدايات » وإني ما زلت أذكر

ما قصه على طبيب مستشفى المركز ذات يوم . قال لي :
إنه دعى إلى حالة ولادة عسرة في إحدى جهات الريف ،
فذهب مسرعاً فوجد المريضة ملقاة على ظهرها وقد
تدلت منها ذراع الجنين ويجوارها عجوز حمراء الشعر
والشدين ، قيل له إنها « ست هندية الداية » وأخبروه
أن المريضة قد مضى عليها ثلاثة أيام على هذه الحال بهذه
الذراع الخارجة منها . فسأل الداية : لماذا انتظرت كل هذا
الوقت ولم تخبرى الطبيب ؟ فأجابت : « كنا منتظرين
ستر ربنا ، قلنا المولى ينتعها بالسلامة » . ووضع الطبيب
يده في الرحم فإذا الرحم محشو بالتبن ، وإذا مثانة المريضة
قد تهتكت وأنها هالكة لا أمل فيها ، وأن المولود
قد مات منذ يومين . وألقى نظرة حوله فإذا
كومة من « التبن » القذر عند أقدام المرأة . فالتفت
إلى « ست هندية الداية الصحية » مستفهماً ، فقالت أصل
ياسيدى الدكتور لما دخلت يدي أسحب الولد لقيتها
راحت « مزفلطة » ، قت قلت : « أحرص كفى بشوية

تين . ومدت للطبيب يداً ملوثة « بالتين » قد بدت
منها أظافر طويلة سوداء . وقال لى الطبيب : « إن
الداية تولد المرأة كما لو كانت جاموسة » . وماتت المريضة
مع طفلها واكتفت الصحة بأن سحبت من هذه الداية
« الصحية » التصريح . . . ولكنها لم تغير النظام وهي
تعلم أن ألوف الأطفال يموتون على هذه الصورة في
كل عام

نظرت إلى حلاق الصحة ملياً وأدركت أن أرواح
الناس في مصر لا قيمة لها . لأن الذين عليهم أن يفكروا
في هذه الأرواح لا يفكرون فيها إلا قليلاً . وطردت
هذا الرجل أيضاً ، وقلت في نفسى : إن خير السبل في
مثل هذه القضية أن أعرف مرسل البلاغ المجهول .
وفكرت لحظة ، وخطر لى أن أعرض خطه على القاضى
الشرعى وهو يتحرى لى بين موظفى محكمته وبين المحامين
الشرعيين . ولعله هو نفسه قد مر به هذا الخط . ومادمت
أعتقد أن صاحب الخطاب أزهرى فليكن البحث في

دائرة المحكمة الشرعية . وطلبت في الحال عبد المقصود
أفندي رئيس القلم الجنائي وهو من أصدقاء القاضي
الشرعي وكلفته أن يرافقتي في الحال ، ولم يمض قليل حتى
كنا في بناء تلك المحكمة ، فسألنا عن القاضي فدلونا على
حجرة أمام بابها « قبقاب » ؛ فهمس عبد المقصود أفندي
في أذني أن فضيلته لاشك كان يتوضأ كي يصلي الظهر .
وسرد لي في عبارتين مبلغ ورع هذا القاضي وزهده ،
وضربنا على الباب ودخلنا . فرأينا القاضي خالماً جبته
وعمامته وهو جالس على حصير الصلاة ، وبين يديه طبق
بلح من نخلة رأيناها مثمرة في فناء المحكمة فلما رأنا
نهض وحياناً وأجلسنا على الكراسي وطلب لنا « زنجبيل »
ورأى عبد المقصود أفندي أن يوفر عليّ مؤونة بدء
الحديث ، فالتفت إلى القاضي الشرعي وقال :

— البك وكيل النيابة غرضه يطلب من فضيلتك ...

فأجاب القاضي سريعاً في شيء من القلق :

— خير إن شاء الله . طلب خصوصي أو ...

وذكرتني هيئته وقلقه بقصة عنه قصها على المأمور
قال لي يوماً : إن المدير اقترح تحسيناً لمظهر المركز
ومراعاة للصحة العامة إنشاء متنزه في وسط البلد ، وقد
تبرع بعض الأعيان بما استطاعوا التبرع به من مالهم ،
وبلغ القاضى الشرعى ذلك ؛ فذهب إلى المأمور وسفه له
هذا المشروع واقترح أن يقام بدل المتنزه مسجد
 لعبادة الله ، وحض الناس على التقوى والصلاح ، فأمن
المأمور الخبيث على كلام القاضى وتحمس لرأيه أعظم
التحمس ، وقال له :

— لابد من عرض اقتراح المسجد على سعادة
المدير ، وأنا متأكد أنه موافق مقدماً ، وزيادة في إدخال
السرور على قلب سعادته نكتب اسم فضيلتك في رأس
قائمة التبرعات ، باعتبار أنك متبرع بمبلغ خمسة جنيهات .
وقد ذكر لي المأمور أنه لم يكذب يلفظ هذا المبلغ حتى
اصفر وجه القاضى ولم يجد ما يقول ولم يستطع أن يسحب
اقتراحه وظهر عليه الضيق والحرج ، وقد كان المأمور

يتوقع ذلك على الرغم من علمه ييسر القاضى وبسطة حاله .
وهذا اليسر لا يبدو على حياته ، فهو يقطن فى شبه
حجرتين ، ويكفيه من الطعام قليل من الجبن مع فجلتين
وبلحيتين . وقد زاره المأمور مرة فى العيد فوجد حجرة
استقباله عبارة عن « دكتين » من الخشب فوق كل
منهما فروة خروف قدرة وبينهما حصير قديم . أما
المرتب الكبير فهو يكثر برمته إلا جنيهاً ثلاثة هى كل
نفقات الشهر . وفى آخر العام يشتري بالمال المكنوز
عقاراً وطنياً . وهو لا يضع ماله فى المصارف خشية أن
يعرف مقداره . ولا يدرى أحد أين يدفنه طول عامه .
وأخبرنى المأمور أن القاضى وكأنه لم يلم الليل حضر إليه
فى الصباح المبكر يجرى ويقول له فى تردد :

— مشروع المسجد بلغت لسعادة المدير ؟

فأجاب المأمور فى ابتسامة خفية :

— طبعاً اليوم آخر النهار أنا ناوى أقابل سعادته .

فأسرع القاضى فى رفق وتلطف ومال على أذن

عقله رمال لينة
من البساتين
الزغال المذرية

المأمور كأنما يفضى إليه بسر .

— أرجوك بس . مسألة الخمس جنيهاً ...

— ما لها ؟ ...

— لا داعي لذكرها ...

هذه الواقعة تمثلت في رأسي فجأة عندما قال لنا
القاضي في قلق : « طلب خصوصي ؟ » فقد قرأت ما جال
في نفسه . فهو لا شك قد خاف أن نكون قادمين لطلب
تبرع من هذا النوع . فأسرعت أرد إليه الاطمئنان
وأخبره أن حضورنا هو لعمل من أعمال وظيفتنا ؛
وأخرجنا في الحال من ملف أوراقنا الخطاب الغفل
وعرضناه عليه وحادثناه فيما نريد منه فأنشرح صدره وقال :
— موضوع بسيط . نشرب الزنجبيل أولاً .. ثم

ننظر بعد ذلك في أمر البلاغ ..

وصفق بيديه وصاح :

— يا شيخ حسنين . استعجل لنا الفراش .

ثم صمت قليلاً . وعاد فحياناً :

— أهلاً وسهلاً .. حصل لنا الشرف ...
ورأى عبدالمقصود أفندى أن ييدى لى صلته
بالقاضى ومعرفة له فأشار إليه والتفت إلى قائلاً :
— فضيلته من كبار العلماء الراسخين فى العلم .
ووجه الكلام للقاضى :
— أنا يا فضيلة القاضى لا أنسى يوم المحاضرة لما
رديت على الولد المدرس ..
فقاطعه القاضى مستغفراً مستعيداً :
— أخزاه الله . أنا لا أطيق الصبر على الكفر
والجهل . والتفت القاضى إلى وقال :
(تصور يا سيدى البك أن هذا الأفندى مدرس
جغرافيا فى المدرسة الثانوية ألقى فيها محاضرة علنية عن
عالم نصرانى اسمه « شنتون » قال إنه قد عرف بالضبط
وزن الأرض والسماء .. استغفر الله العظيم ..)
وتأملت قليلا فى الإسم الذى نطقه القاضى .
واهتدبت آخر الأمر إلى أن المقصود به العالم الرياضى

« اينشتين » ، ولذلى أن أعرف ما جرى ، فهذا من غير شك صراع بين عقليتين واصطدام بين رأسين يحلولملى دائماً أن يشاهده ويقف على مداه ، فقلت للقاضى فى شىء من الاهتمام :

— وحضرت المحاضرة يا فضيلة الشيخ !

— حضرت والأمر لله من قبل ومن بعد .

— وماذا حصل ؟

— حصل ياسيدى أن هذا المدرس قام وقال فى

حضرة الباشا المدير وكبار الموظفين والأعيان إن هذا

العالم الكافر قد أتى بما لم يأت به الأوائل والأواخر ،

فقممت وصحمت به : « كذاب يا حضرة المدرس ، لقد

قال الله فى كتابه العزيز : « ما فرطنا فى الكتاب من

شىء » فأسكتنى الحاضرون فسكت تأدباً لوجود سعادة

المدير ولولا هذا ما سكت ورب الكعبة ، ثم استمر

هذا الأفندى فى كلام لا هو بالمعقول ولا بالمنقول إلى

أن قال : إن عالمه النصرانى قد استطاع بمعادلات جبرية

أن يزن الأرض والسماء ! فما تما لكنت نفسك ونهضت
وأنا أنتفض وصحت به : « مهلا يا حضرة الأفندي مهلا ،
أخبرنا قبل كل شيء ، هل هذا العالم (شنتون) وزن
السموات والأرض بالكرسی أم بدون الكرسي ؟ ... »
فارتبك المدرس ونظر إلى قائلها : « كرسي إيه ؟ »
فرددت عليه بالآية الشريفة : « وسع كرسيه السموات
والأرض .. » أجب أيها المدرس الأفاك ، ها هنا الحاصل
والجوهر ، الوزن كان بالكرسي أو بغير الكرسي ؟ ...
فكتمت ضحكي وقلت في هيئة الجد :

— وأخيراً ... ؟

— وأخيراً يا سيدي ... لا شيء ، لم يستطع المحاضر
أن يجيب ، واحتج وانسحب ، وضج الحاضرون واختلط
الحابل بالنابل ، وغضب مني سعادة المدير واعتبرها
إهانة لمجلسه ، وترك الناس المحاضرة وهي المسألة الأصلية
والتفتوا إلى اعتدائي على مقام المدير وهي مسألة فرعية ،
وتكاثروا عليّ يطلبون إليّ الاعتذار ، فاعتذرت ،

وأمرى لله ! ولكن مع ذلك أشعر أن من يومها والباشا
المدير لا ينظر إلى بعين الرضا . . .

وسكت قليلاً ثم قال فى لهجة أخرى :

— بمناسبة الحالة السياسية اليوم أظن الوزارة
الجديدة ستجرى حركة تغيير وتبديل بين المديرين
ورجال الإدارة كالمعتاد ؟

فلم أكد أفتح فى لأجيب حتى دخل الفراش
وهو نصف شيخ . أعنى أنه يلبس العمامة على جلباب
عادى قدر كجلايب الفلاحين ، وهو عارى القدمين .
وقدم لنا فنجانين من طرزين مختلفين قد كسر مقبضاهما
فشربت فى احتراس وأنا أنظر إلى داخل الفنجان خشية
أن يكون فيه بدل السكر صرصار . وفرغنا من الحديث
والزنجبيل وبدأنا العمل . وطلب القاضى أوراقاً بخط
موظفيه ضاهينها بخط البلاغ فلم نجد مشابهة . وعرضنا
البلاغ على من فى المحكمة لعل أحداً يذكر لنا أنه يعرف
صاحب هذا الخط فلم نظفر بطائل . وخرجنا من المحكمة

كما دخلنا ومشينا في طريقنا إلى دار النيابة . فقال
عبد المقصود أفندى :

— نمر بالمرّة نفّتش سجن المركز ونخلص .
فلم أبدأ اعتراضاً . وذهبنا إلى المركز فوجدنا المأمور
قد جمع بعض العمدة في حجرته وجعل يشرح لهم وجهة
النظر الجديدة ويصدر إليهم تعليماته بنفس الحماسة التي
كان يبدئها في مبدء تولى الوزارة السالفة . فما إن رأني
وعلم بالغرض من زيارتي حتى خف لاستقبالي وأجلسني
في صدر حجرته . وفض مجلسه وهو يشيع العمدة إلى
الباب قائلاً :

(— فتح عينك يا عمدة أنت وهو . مرشح الحكومة
في الانتخاب لازم ينجح ، أنا نفّضت يدي وأتم أحرار)
مفهوم ؟ ..

فأجابوا في صوت واحد :

— مفهوم يا حضرة البك .

وتردد أحدهم وقال :

— فيه يا جناب البك جماعة مشاغبين أقويا كلمتهم
مسموعة من العائلة الثانية الكبيرة . . .

فدفع المأمور في كتفه دفعاً وقال له :

— المشاغبين أتركهم لى أنا ! . . . تفضل .

فخرجوا جميعاً وعاد إلى المأمور يتنفس الصعداء
ويقول فى صوت متعب :

— بقى لى يومين بليتين فى القرف ده .

وأردت أن أداعبه وأخيفه قليلاً فقلت :

— لكن يا حضرة المأمور معروف عنك أنك من
حزب الوزارة السابقة .

فقال لى على الفور :

— أسكت إعمل معروف . أنا طول عمرى مع

الوزارة الجديدة بقلبي ، واللى فى القلب فى القلب ؛
والأعمال بالنيات .

فابتسمت وقلت له :

— تترك السياسة ونتكلم فى الشغل .

وأخبرته بنتيجة فحص الجثة ووجود العظم اللامى
مكسوراً وضرورة البحث عن المجرم فى جناية الخلق
الجديدة . وطلبت إليه أن يوجه عنايته لمساعدتنا فى
الكشف عن الفاعل . فقال فى الحال :

— المركز مش فاضى اليومين دول للخلق والحرق .

— عجائب . أتم لكم شغل غير المحافظة على الأمن؟!

— يعنى حضرتك مش فاهم ! . . .

— لأ مش فاهم ! . . .

— تترك الانتخابات وتلتفت للقتل والخلق ؟ . .

— طبعاً .

— التعليمات اللى عندنا غير كده !

وتركنى وجعل يعبت بقيود حديدية وسلاسل

معلقة على حائطه . وغمزنى عبد المقصود أفندى كى أغلق

هذا الموضوع . وأراد أن يغير مجرى الحديث فقال :

— البك المأمور يسمح بطلب دفاتر السجن . . .

وشعرت أن كرامة عملى فى خطر فصحت قائلاً :

— لا بد أنى أفتش بنفسى السجن والمركز كله .
ونهضت فى قوة وعزيمة أزجبت المأمور فتردد ثم
قال فى رفق :

— تفضل السجن تحت أمرك ... انتظر سعادتك
دقيقة واحدة .

وخرج سريعاً من الحجرة وهو ينادى :
— يا شاويش عبد النبي ...

واختفى عن نظرى . ودفعنى دافع إلى النظر من
نافذة للحجرة تطل على فناء المركز . فرأيت المأمور
والجاويش يسرعان إلى سجن المركز ويفتحانه ويخرجان
منه أشخاصاً تدل هيائهم على أنهم من أهالى النواحي
ذوى الرخاء ويزجان بهم فى حجرة التبن والعلف ويغلقان
عليهم بابها بالمفتاح . فقلت لعبد المقصود أفندى .

— تعال وطل بعينك ده ولا سجن الباستيل .
المأمور أخفى بعض الأهالى فى أودة التبن .

فقال لى عبد المقصود فى شىء من التوصل :

— يا بك ، الوقت بطل ، والسياسة متحركة في
البلد ، ما فيش داعى للتدقيق ...

— يعنى تترك الناس في الحبس من غير جريمة ؟ ..

— يا سعادة البك ، رئيس المأمور ولا يخفأك هو

وزير الداخلية ورئيس الوزراء في الوقت نفسه ، أما

رئيسنا فهو وزير الحقانية فقط ، وقد سبق أن قضاة

ووكلاء نيابة وقفوا للإدارة في ظروف سياسية مواقف

من هذا القبيل قاموا نكلوهم الصعيد !

— يعنى نغضى على دفاتر المركز ونسكت ؟ ..

— يا سيدنا البك ، إحنا حانكون أحسن من

مين ... كان غيرنا أشطر ...

— طيب ، قم استعجل لنا الدفاتر والسلام ...

١٩ أكتوبر ...

رأيت أن الطريق الوحيد بعد ذلك أن أبحث عن ذلك الخاطب الذي كان قد تقدم للبنت ريم . ولكن كيف نستدل عليه ونحن لا نعرف حتى اسمه ؟ فلنطلب إذن إلى المركز أن يأتي إلينا بأحد الجيران لعله يعرف الخاطب . وليكن الجار امرأة ؛ فإن المرأة بطبيعتها فضولية ثرارة . فإما من جارة لا تعرف أسماء الخاطبين والمخطوبات في الحارة ، ولكن هل أستطيع الآن أن أكلف المركز بإحضار شاهد أو بالبحث عن مجرم ؟ إن السياسة وحدها هي كل شيء اليوم في المركز ؛ ولن أجد خفياً يلقى بالاً إلى أوامر الساعة . فلنتصل نحن مباشرة بالقرية ونطلب إلى النقطة أن ترسل إلينا المرأة المطلوبة . وأمرت في الحال حاجبي فتقدم إلى آلة التليفون وأمسك بالبوق وجعل يصيح أكثر من ربع ساعة :

— يا نقطة ! يا نقطة ! ردى على يا نقطة ! البك

الوكيل جنبي يا نقطة !

ولكن النقطة غضت طرفها الناعس عنا ولم تكلف
نفسها عناء الرد علينا ؟ واشتد غيظ الحاجب وجعلت
يده تحرك جرس التليفون بقوة كادت تخلعه . وهو من
تليفونات المراكز التي لا توصل الكلام بين المتكلم
والمخاطب حتى ينقطع نفس الاثنين من كثرة الصياح
وحتى ينقطع حبل الحديث مائة مرة ومرة تشتبك
خلالها حبال أحاديث أخرى من بلاد أخرى ومن
مصالح مختلفة . فبينما يدور الكلام حول إرسال متهم إذا
صوت يجيب في مسألة متعلقة بتفتيش الرى وبالفتحات
ونوبات الترع ، وإذا آخر يتكلم في أنفار القرعة ويطلب
طلبات في لهجة الأمر والنهى . على أننا اليوم لا نلقى ردا
على الاطلاق . ويد الجرس في يد الحاجب لا يقف لها
دوران ، كأنه يدير طاحونة بن . ولا ينفك يصيح تارة
مهدياً وتارة متوسلاً :

— أنا في عرضك يا نقطة ! كلمة واحدة يا نقطة !

إخص عليك يا نقطة ! ردى على يا ...

فأتمالك أنت صحت فيه :

— شيء لطيف ! أنا قلت لك أطلب النقطة ، مش
فازل النقطة !

— يظهر يا سعادة البك أن النقطة خالية من
حضرة الملاحظ والبلوكامين والكل كليلة ...

— النقطة خالية ...

— أيام انتخاب يا سعادة البك .

— والعمل ؟

— نتصل بدار العمدة ونطلب النفر والحرمة .

— اتصل .

واستطعنا آخر الأمر أن نظفر بحضور الحرمة
الجارة مع «مخصوص» وكان ميعاد غدائي قد حان . وكان
قد أجهدتني العمل المعتاد بالمكتب . أعني تحقيق
التزويرات وقضايا الربا الفاحش والتلبس الوارد من
المركز من «إيراد» اليوم ، وأكثره الآن محاضر
«تشرذ» ضد الأهالي غير الموالين للحكومة القائمة .

وما أسهل هذا السلاح وما أقواه في يد رجال الإدارة
فإن كل نجل كريم من أنجال الأعيان يمكن اتهامه
بأنه لا يحترف صناعة ، ويمكن بذلك القبض عليه
وحبسه أربعة أيام بإذن النيابة حين التحرى عنه وطلب
صحيفة سوابقه من مصر . وأين هو وكيل النيابة الذي
يعارض المركز اليوم في إصدار أوامر الحبس ؟ وقت
للغداء بعد أن أصدرت من هذه ما شاء الله والمركز .
وعدت بعد الظهر لسؤال المرأة ، فتكلمت كلاماً كثيراً
لم أخرج منه إلا أن الفتى الخاطب يدعى « حسين »
وهو ليس من أهالى البلدة بل من بلدة مجاورة .

— اسمه حسين إيه يا وليه ؟ فيه ألف حسين في

البلد ! لقبه إيه ؟

— ما اعرفش تقبه يا سيدى . البنت قالت اسمه

« حسين » وأنا مالى بقى أسأل عن أصله وفصله . أنا حرمة
غلبانه فى حالى ، بعيد عنك ما أكره على إلا كتر
الكلام . أنا طول عمرى يا سيدى فى الحارة ما أحشر

نفسى فى كلام ولا فى سؤال . وأنا مالى ، قالوا يا داخل
بين البصلة وقشرتها ...

— اسكتى قلبت دماغى فى الفارغ ، داهية تقلب
دماغ اللى طلبك . يعنى لو عرضنا عليك الولد تعرفيه ؟
— أعرفه ياسيدى . ياندامة ! وأنا بقى خلاص
انعميت ... أنا كنت اسم الله على مقامك ...

— كفاية ... انت واحدة والله الحمد لا تحبى كتر
الكلام ولا ...

— كتر كلام ... أبداً وحياة شرفك ... أنا بعيد
عنك من يوم ...

— بس !

وناديت الحاجب ، وأمرته بإخراج المرأة وإجلاسها
فى الدهليز بجواره تنتظر حتى تطلب . وكلفته بمخاطبة
البلدة التى فيها الفتى ليحضر والفتيان الذين يسمون فيها
باسم « حسين » ممن تنطبق أحوالهم وأوصافهم على
ما لدينا من المعلومات . وجلست أنتظر ساعة وأنا

أفكر في قيمة هذا العرض « القانونى ». إني لا أثق كثيراً بفراسة هؤلاء النسوة . وما زلت أذكر قضية قتل أتينافيا بزوجة القتل وعرضنا عليها المتهم بين أشخاص آخرين جئنا بهم عفواً من قاعة الجلسة المدنية المنعقدة في صباح اليوم . وكان من بين هؤلاء شخص منكود الطالع أتى يحمل مستندات شركته في جاموسة ويسمع الحكم على خصمه بالطلبات . فإذا هو يجد نفسه قد زج بين الأنفار الذين أخذوا من قاعة الجلسة ليقفوا في صف طويل في قاعة النيابة ، وقد أخرج عليهم وكيل النيابة امرأة شمطاء ، أمرها أن تبرز القاتل من بينهم . فتفرست المرأة في الوجوه وهى تدق صدرها وتدعو بالويل على قاتل زوجها ، ودنت من القاتل الحقيقى ومرت عليه مر الكرام ، ووصلت إلى ذلك المسكين صاحب المستندات الذى ليس له فى الثور ولا فى الطحين ، فلكمته فى صدره لكمة كادت ترديه و« رقت » بالصوت :

— غريمى !

فأرتج على الرجل وقد فوجئ ثم تمالك وقال :

— يا ستي أنا أعرفك ؟

فلم تسمع إليه المرأة ومضت تولول :

— غريمي ! دمي . غريمي ...

والتفت إلى الرجل كالمستجير :

— يا سيدى البك . انهضنى . أنا عمري لا شفتها

ولا قابلتها ...

فقام وكيل النيابة وهو أنا ، ولا نفر ، بأسئلته
« التجارية » المحفوظة عن ظهر قلب ، المعتبرة من
« روتين » العمل التى إذا لم تسأل أحصتها الرئاسة علينا
هفوة ، وإن لم يكن هناك محل لتوجيهها ، أسئلة سخيفة
لا تعنى شيئاً فى ذاتها ولكن القضاء يعتبرها محرجة
مضيقة على خناق المجرم :

— بينك وبينها ضغائن ؟

— أبداً يا سيدى ولا أعرفها .

فتمهلت قليلا لكى ألقى ذلك السؤال الذى يلقيه

كل وكيل نيابة وكل قاض في ثقة واطمئنان كأنما يلقى
يده على الدليل المبين :

— إذن ما سبب ادعائها عليك ؟

— أنا عارف ! مصيبة على الصبح وارتقت على .

— إحجزه يا عسكري !

— يحجزني ؟ أنا يا سيدنا البك لى قضية مدنية

تحت . اعمل معروف خلىنى أروح لشغلى .

وألقي الرجل فى الحبس الاحتياطى . ونوديت

قضيته المدنية فلم يحضرها بالضرورة فشطبت دعواه

وجلس الرجل القرفصاء على الأسفلت ومستنداته فى

يده يفكر فيما آل إليه حاله بلا مبرر ولا جريرة .

تذكرت ذلك وقلت فى نفسى : « كلا لا ينبغى أن

نبالغ فى قيمة « العرض القانونى » ، إن هؤلاء الفلاحين

بأعينهم التى أكلها الصيد منذ الطفولة ، ومداركهم

التي تركت هملا على مدى حكم ولاية من جميع الأجناس

لا يمكن أن يركن إليها فى حكم أو تمييز . وهل هناك

أعجب من « عرض قانوني » آخرقت به في قضية تزوير ،
وكان المتهم « أفنديا » وقد وضعته بين أشخاص مطربشين
وجئت بالمجنى عليه الفلاح وأمرته بإخراج « غريمه »
من بين هؤلاء ، فتفرس في الوجوه لحظة ثم ترك الصف
بأكمله ووقف تجاهي أنا وكيل النيابة المحقق وأطال
النظر في وجهي وقد بدت في عينيه علامات الشك الذي
سيتبعه اليقين أنه وقع أخيراً على المجرم الحقيقي ، وكان
حاضراً عندي وقتئذٍ أحد كبار مفتشي النيابات زائراً وقد
أراد أن يشهد عملية العرض . فهالني أن يطيل الرجل
شكه في أنا فيبدو للمفتش رأى لا أرضاه ، فانتهرت
الفلاح وأمرته أن ينظر في الصف الذي أمامه ويخرج منه
المتهم . فكان اللعين يمر بالصف مرّاً سريعاً ويعود فيلقي
بصره على ويفحصني من رأسي حتى إخمص قدمي فخص
المشتبه المستريب . ولن أنسى اضطرابي يومئذ . وقلت
في نفسي : « الله يكون في عون المعروضين » ولم أجد
عند ذاك مندوحة من أن أنهى عملية العرض في الحال

قائلا في سرعة : « لم يستعرف المجنى عليه على أحد »
وأمرت الحاضرين بالانصراف ، فخرج الرجل وهو ما زال
يختلس إلى النظر . (كلا إن تلك الإجراءات التي تتبع في
أعمالنا القضائية طبقاً للقوانين الحديثة ينبغي أن يراعى في
تطبيقها عقلية هؤلاء الناس ومدى إدراكهم وقدرتهم
الذهنية . أو فلترفع تلك المدارك إلى مستوى تلك القوانين !
وحضر المطالبون وأوقفناهم في صف طويل وأدخلنا
المرأة فتقدمت وهي تقول :

— بسم الله الرحمن الرحيم .

ولم أترك لها مجالا للثرثرة . فقد انتهرتها :

— كلمة ورد غطاها يا ولية . من في الحاضرين

الخطاب ؟ ...

فدنت من أقرب الفتيان إليها ونظرت إليه بعينها

« العمشاء » نظرة « العرضحاجي الأصبش » إلى « عريضة »

يرفعها في يده حتى تمس أنفه . وقالت له في صوت خافت

تريد ألا يصل إلى مسامعي :

استحاج الحاضرين
تدوير الحاشية
للنظر في القضايا

— أنت « يا ادلعدي » مش اسمك حسين ؟
فأدركت في الحال مبلغ علم المرأة بما انتدبت
لأجله وقلت لها في شدة :

— كل الجدعان اللي قدامك يا وليه اسمهم حسين
— قطيعة !

لفظتها المرأة في صوت الواقع في حيرة من أمره .
ثم اتجهت إلى التالى وسألته :

— انت منين يا جدع انت ؟
فأجابها الرجل في صوت هادئ :
— من امبابة يا ستى !

فقالت على الفور في لهجة الجد :
— دى بلد الحمير يا جدعان . دا كان مرة « ادلعدي »
جوزى اشترى منها حمار ...
فلم أتمالك أن صحت :

— أخرجى يا « قرشانه » يا « وحشة » يا قليلة
الحيا .. ضيعت وقتنا ، نهار بحاله . إخص على دى شهود ..



قلتها من غيظي وأنا ليس من عادتي « القباحة » ،
ولكن هذه المرأة التي أفهمتي أنها رأت الخاطب بعينها
وتعرفه إذا حضر أمامها قد اتضح الساعة أنها لا تعرف
إلا اسمه . وحتى هذا الاسم الأثر « حسين » من أدراننا
إذا كان هو اسمه الحقيقي أو إنها كلمة ألقها على عواهنها
هذه المرأة « الهجاصة » . وسألت الحاضرين عن الخاطب
فلم أجد بينهم من يفهم غرضي أو من يعرف شيئاً عن
الموضوع . فصرقهم . ولم أكد أخلو إلى نفسي وأفكر
فيما ينبغي عمله بعد ذلك ، حتى فتح الباب ودخل على مساعدى
آتياً من البندر حيث كان يترافع فى قضايا الجنایات التى
أحلتها عليه . وقد رأيت وجهه نضراً مشرقاً وابتدرنى قائلاً :
- البنادر هى النعيم . يا خسارة رجعنا بسرعة إلى

جحيم الريف !

- أخذت أحكام براءة ؟

- أنا نزلت فى أحسن بانسيون وصرفت ضعف

بدل السفيرة ...

— رد على سؤالى . القضايا عملت فيها إيه ؟

فوجم الشاب قليلا ، ولم يكن ينتظر منى الكلام .
فى العمل والجدمنذ اللحظة الأولى . وكان يحسن فى فعلا
أن أكون به لطيفاً رقيقاً ، ولكن القضية التى فى يدى
أتعبت أعصابى ، أو لعل شيئاً من الحسد الخفى قام فى
نفسى إذ رأيت هذا الفتى عائداً كالزهرة المشرقة من
ذلك النعيم الذى يقول عنه بينما أنا راسف فى أغلال
الوظيفة غارق فى عمل دى مسئولية لا يقف ولا ينتهى
وتنبهت مع ذلك لخشونتى وأردت أن أبتسم وأن
أتكلم فى غير القضايا . ولكن المناسبة كانت قد فاتت
ومضى المساعد يحدثنى عن القضية التى ترفع فيها قائلاً :
إن المتهم فيها قد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة لأنه
قتل رجلاً فى نظير مبلغ خمسة جنيهات . فالقاتل رجل
سودانى بدوى قوى الجسم يحترف إزهاق الأرواح .
وقد اتفق معه أحد الفلاحين على قتل خصم له وحررت
الكبيالة بـ «الروح» . وانطلق ذلك المحترف حاملاً

بندقيته كما يحمل الفنان قيثارته ، ووقف بها تحت نافذة
المسجد حتى دخلت « الروح » الغالية وسجدت تصلى
فأرسل إليها ذلك المتربص من بين قضبان النافذة قبلة
واحدة ذات صفير من « ماسورة » أرغوله الجهنمي كانت
فيها الكفاية . وهي صناعة تحتاج إلى ثبات يد ، كصناعة
النجارة ، فالنجار الحاذق يضرب المسمار ضربة واحدة
لا عوج فيها ولا ميل ، تصيب اللوح في الصميم . وكان
مصير هذا الدم الضياع كالمعتاد ومآل القضية البراءة ،
لولا خلاف دب بين البائع والمشتري . فالقاتل سلم
« البضاعة » حاضرة . ولكن المشتري مطل بالثمن .
ولم يطق القاتل المحترف صبراً على هذا « الزبون »
المتوقف عن الدفع . فصاح به وسط الجلسة غير مراع
حرمة قضاء ولا قضاة ...

— عايزني أقتله لك لوجه الله ؟

وترك « زبونه » والتفت إلى هيئة المحكمة :

— اشهدوا يا ناس على قلة الشرف . أنا برده أستحق

الشنق ؟ اللى ما قبضت مقدم . هو يخرب البيوت
إلا الشك !!

وضحكت قليلاً أنا ومساعدى . وقد أبدت له
ملاحظتى على هذه التجارة أو الصناعة المعروفة فى
الريف . وهى الاستئجار على القتل . إن الفلاح المصرى
يلجأ كثيراً إلى محترف يقتل له . كما كان بعض ملوكنا
الأقدمين يلجأون إلى الجنود المرتزقة . أهو نقص
خلقى فى الفلاح يضاف إلى أمراضه الجثمانية والفكرية
والاجتماعية الكثيرة . أم إنها قلة مقدرة وضعف ثقة
بالنفس منشؤها اشتغاله بأعمال العبيد من قديم فى
الأرض والزراعة وترك الفروسية والجنديّة للمغيرين
وأقربهم بنا عهداً الأعراب والأتراك . إن الملاحظ على
أشهر محترف فى القتل فى الأرياف أنهم من دم أجنبى .
أم أن الفلاح يحب السلام ويأنف أن يزاول سفك
الدماء بيده التى تبذر البذر ويخرج منها الخير . لست
أدرى . إن الأمر يحتاج إلى درس خاص . ويكفيننا نحن

المتصلين بهذه المسائل أن لا نمر عليها بغير ملاحظة .
وقد أفهمت مساعدى أن مهنتنا سخية بمادة البحث
والملاحظة . وإنه طول حياته بها لا ينبغي أن يسير
مغمض العينين . فهي خير مهنة تكون الرجل تكويناً
صحيحاً . فوكيل النيابة إن هو إلا حاكم صغير فى مملكة
صغيرة ، إذا فهم كل شىء فى هذه المملكة ، ولاحظ كل
شىء ودرس الناس وطباعهم وغرائزهم ، فقد استطاع
بعد ذلك أن يعرف تلك المملكة الكبيرة التى هى دولته
بل استطاع أن يفهم ذلك العالم الأوسع الذى هو
« الإنسانية » . ولكن كم من رجال النيابة أو القضاء
يستطيع أن يلاحظ ؟ أن قوة الملاحظة هى أيضاً هبة
عظيمة لا يملكها كل الناس . وقد وعى مساعدى
هذا الكلام وهو على قسط وافر من الذكاء . فأطرق
قليلاً ثم رفع رأسه وأخبرنى أنه لاحظ أمراً استوقف
تفكيره فى جلسة الجنايات ، ذلك أن المستشارين
ينطقون بادىء بدىء بالحكم . ثم ينصرفون بعد ذلك

إلى كتابة الأسباب . والمنطق الذى يتصوره هو أن يكون الأمر على العكس . ملاحظة قيمة . ولقد أخبرنى فعلاً أحد المستشارين من أهل الصراحة أنه بعد أن نطق ذات مرة بالحكم فى جناية خطيرة ورجع ليلاً إلى مكتبه وورقه وملفات القضية ليكتب الحثيات ، وقع نظره على أقوال وعبارات فى محضر جلسة اليوم ، وفى المحاضر السابقة ، وفى تحقيق النيابة استخلص منها تفكيره الهادئ الرزين فى ذلك الليل الساجى ما لو عرفه قبل النطق بالحكم لكان حكمه قد تعدل وتبدل . ولكن ما العمل الآن وقد تم النطق بالحكم وما من سبيل إلى تغييره بأى حال ؟ لا يستطيع أن يصنع شيئاً . فجعل همه تلك الليلة أن يستخرج من الأوراق جميع الأسباب التى يبررها النطق بالحكم . وكمن الحثيات الطويلة تكتب تبريراً وتدعياً لحكم سريع مضى النطق به ، لا تفسيراً لعدالة ولا تمحيصاً لحقيقة ..

٢٠ أكتوبر ...

قمت في الصباح بمجرد خزينة المحكمة . فالنيابة هي
التي من شأنها مراقبة الخزينة ، وعليها أن تقوم بهذا
الجرد مرتين على الأقل في كل شهر بطريق المفاجأة .
ويظهر أن كلمة « المفاجأة » وضعت في اللوائح والتعليمات
من قبيل التشويق كما توضع في إعلانات المسارح ، فهي في
العمل لا وجود لها . وقد جرت العادة أن ينسى وكيل
النيابة لكثرة مشاغله هذا الجرد فلا يذكره به إلا الصراف
المقصود مفاجأته . فهو الذي يطلب في إلحاح حضور
البك الوكيل « ليفاجئه » بالجرد في تمام العاشرة قبل إيداع
الأموال في خزانة المديرية حتى يسدد الخانة طبقاً للقانون .
وفي أكثر الأحيان لا يشعر وكيل النيابة إلا وقد فوجئ
هو بالدفترا الخاص بالخزينة يعرض عليه مع المحضر محرراً باسمه
« نحن فلان وكيل النيابة قمنا اليوم فجأة بمجرد الخزينة ،
فوجدنا بها كذا أوراقاً مالية وكذا فضة وكذا أشياء
ثمينة وكذا أمانات » فيوقع وهو لم يتحرك من كرسيه

وهو يقول : « خذوا إمضا وخلوا عني بلا وجع دماغ »
غير أنى أنا شخصياً أنتقل بالفعل وأشهد الخزينة وإن
كنت أوقع آخر الأمر على كل حال دون أن أطبق
صبراً على عد النقود التى توضع أمامى . وانتهيت من
هذه المأمورية ، وعرجت على مخزن النيابة فى طريق
أفتشه « بالمره » وهو عبارة عن حجرة تشبه دكان
« ألف صنف » فيها من أصناف البنادق والغدارات
الريفية والسكاكين والشراشير والمناجل والفؤوس والبساط
والنبايت والمراوات و« اللبد » و« البلغ » و« الجلايب »
الملطخة بالدم والطين و« الصدارى » المثقوبة بالرش
والبارود ؛ كل عليه رقه وتاريخ ضبطه ورقم القضية
التي ضبط على ذمتها . وعندى أن نظرة واحدة تلقى على
مخزن نيابة أى بلد تدل فى الحال على لون هذا البلد وعقليته
ودرجة حضارته . ولا شك عندى فى أن مخزن نيابة
« شيكاغو » مثلاً لا يمكن أن يحوى مطلقاً هراوة
أو شرشرة . وصعدت بعد ذلك إلى مكبى ، فوجدت

حضرة القاضى « المقيم » فى الانتظار وقد أحضر له
الفراش القهوة . فما كاد يرانى حتى صاح :

— خلاص الفوضى دبت فى البلد !

فأردت أن أفتح فى أسأله الإِفصاح ؛ فلم يمهلى
ومضى يقول :

— راحت هيبة الأحكام !

— إيه المسألة ؟

— المسألة ياسيدى أنى أصدرت حكماً مدنياً ضد

عمدة من الموالين للحكومة وراح المحضر ينفذ عليه ،

تعرف حصل إيه ؟

— لأ .

— انضرب بمعرفة العمدة « علقه » لكن « نضيفه »

وانحبس أربعة وعشرين ساعة فى حجرة التليفون .

— والمركز عمل لها قضية ؟

— أبداً . ماهى هنا الخطورة . لا قضية ولا مذكرة

ضحكوا على المحضر وقالوا له يسحب شكواه وصرفوها .

— ماداموا صرفوها اتهمينا .
— اتهمينا ازاي ؟ أنا لا يمكن أسكت عن مسألة
زى دى . دا اسمه إجرام ! البوليس يجرم ...
— يظهر أن حضرتك، اشتقت لحرّ وجه قبلى .
— ينقلوا قاضى وجه قبلى لأنه أراد منع المركز
من العبث ... ؟

— عملوها كثير . وسبق نقلوا قاضى أقاصى
الصعيد لأنه أفرج فى قضية معارضة عن متظاهرين ضد
الحكومة ، مع أن هذا القاضى كان من المحايدين البعيدين
عن الأحزاب وعن السياسة . ولا يخفى أن بينك وبين
المأمور سوء تفاهم عالى . وساعتها تلقى المأمور حرر
التقارير السرية عنك واتهمك بأنك من خصوم
الحكومة ، وأنت من أرباب الفتن والدسائس ، وأنت
تضطهد أنصار الوزارة ، وأنت خطر على سياستها
الحاضرة إلى آخر هذا الأسلوب المعروف .

— شىء جميل . البوليس محرر التقارير السرية

ضد القضاة ؟ !

— حصل .

— والعمل إليه ؟

— أترك لي المسألة . أنا أتحرى من المركز بلطف

وأجري اللازم . . .

— لهذا الحد تعبت السياسة عندنا بالعدالة والنظام

والأخلاق ، أعوذ بالله ! شئ مخيف . . . !

وجعل يهز رأسه أسفًا وحنقًا . ثم التفت إلى

فجأة وقال :

— دا صحيح . تصور أن فضيلة القاضي الشرعى

« الضلالى » عامل اليوم أنه صديق المأمور الحميم مع أنه

كان يكرهه كراهة التحريم من بعد حادثة الأجزخانة !

فأبدت عجبى . إني حقيقة كنت قد سمعت من

المأمور فيما سمعت من أخبار القاضي الشرعى هذه الحادثة :

أن أهالى البلد وأعيانها لاحظوا افتقار البلد إلى أجزخانة

« أصولية » تفنيهم عن البنادر الكبيرة فكتبوا فيما

بينهم بمبالغ أسسوا بها أجزخانة نظيفة كاملة الأدوات

وعينوا لها «أجزجى» قانونى هو رجل سورى يسمى «جبور» ثم تباحثوا فيمن يصلح مشرفاً على مالية هذه الأجزاخانة وعلى إدارتها، ووقع الاختيار فى آخر الأمر على فضيلة القاضى الشرعى . ومن غير فضيلته بلحيته الوقورة وسبحته الطويلة يؤتمن فى هذه البلدة على أموال المسلمين وغير المسلمين من المساهمين؟ ووافق المأمور على تنصيب القاضى الشرعى مشرفاً وتكرم فضيلته وتسلم مهام عمله بأن جعل مجلسه عصر كل يوم أمام باب الأجزاخانة حيث يتنحى ويبدأ باسم الله والصلاة على نبيه وآله وصحبه . ثم يصيح :

— يا خواجه جبور . القهوة والشيشة !

ثم يجتمع عليه من أصدقائه وأقاربه الآتين من الكفور عدد كثير كل يوم ، فيأمر لهم بالقهوة أو الشاي . وكل هذه الطلبات طبعاً على حساب الأجزاخانة . وهو لا ينسى مطلقاً أن يلقى نظرة على مستحضرات المحل قبل انصرافه وهو يقول لجبور :

— عندك صابون ممسك من العال ! زجاجة «الريحة»

«الكلونيا» دى لا بأس بها ! .

ولا يكاد يدخل فضيلته منزله حتى تكون هذه
البضاعة التى أعجبهته قد سبقته إلى البيت . ويجلس أحياناً
أطفاله إلى جواره يباب الأجزاء أو يتركهم يلعبون حوله
فإذا جاءوا أو بكوا صاح القاضى فى الأجزجى القانونى :
— يا خواجه جبور ! هات للأولاد كم قرص نعناع
من عندك !

ويحتاج فضيلة المشرف إلى بعض المال فى بعض
الأحيان فيقول للأجزجى :

— هات من «الدرج» أربع «برايز»

وتمر بائعة دجاج فيشترى منها فضيلته «زوجين»

«عتاقى» ويصيح فى الأجزجى داخل الأجزاء :
— ادفع لها من «الدرج» يا خواجه جبور

وضاق ذرع الأجزجى جبور آخر الأمر . فصاح

فى القاضى ذات يوم :

— الدرج ! الدرج ! شوها العما بها الدرج !
ونشب الشجار بين المشرف والأجزجى ، وأقسم
جبور أن يكسر ساق القاضى إذا حضر إلى الأجزاخانة
بعد ذلك . واستغاث بالمأمور ، وعرض عليه ما وصلت
إليه حالة الأجزاخانة . فإذا هى موشكة على الأفلاس ،
فقد اختفت مستحضراتها ونضبت مواردها ، ولم يبق
أمل فى بقائها ؛ فإن الأجزجى هو الآخر إقتداء بفضيلة
المشرف الوقور لم يقصر فى الأجهاز من جهته على الباقي
من « الدرج » والبضاعة والأدوات ، وتغيظ المأمور
وصاح فى الأعيان المساهمين :

— الحق علينا اللى صدقنا اللحية والسبحة !
ومنذ ذلك اليوم والمأمور دائم التشهير بالقاضى
الشرعى قائلاً عنه : « الرجل الضلالى » ، والقاضى الشرعى
من جهته دائم النيل من المأمور قائلاً عنه : « الرجل
الزنديق لاعب الميسر »

ولكن السياسة قد جعلت رجال الإدارة اليوم

أصحاب سلطة مخيفة ، وقد خشي فضيلته على نفسه ،
ورأى بحكمته أن الأمان في مصاحبة المأمور . فهل يحجم
عن التقرب إليه والتزلف له ؟

مر بخاطري كل ذلك وأنا جالس وأمامي القاضي
الأهلي ، ولم أتمالك فقلت كالمخاطب لنفسي :
— لا بأس من الصلح ، لكن في الظروف الحاضرة ..
فيه شيء اسمه كرامة ..

فرفع القاضي يده في حركة ذات معنى وقال :
— كرامة مين « يامونشير » !
ونهض يريد الانصراف وهو يميل على ويقول
بصوت منخفض :

— كلام في شرك . في يوم حضر إلى بيتي فلاح
ومعه خروف وقال « الهدية » . فقلت له : « هدية إيه
ياراجل » ؟ فقال : « الهدية اللي تم عليها الاتفاق علشان
رد الولية امرأتى » . ففهمت وقلت له في الحال : « إنت
يارجل غلطت في البيت إنت قصدك القاضي الشرعى » . ١

فلم أجد دهشة كبرى وأطرقت برأسي . وسكت
القاضي محدثي قليلا . ثم تحرك نحو باب الحجرة وحياني
بيده تحية مختصرة وذهب ، وجلست وحدي قليلاً
أفكر في كل ذلك ، ورأيت أن أقوم إلى المركز في
شبه زيارة خاصة لأستطلع من المأمور عما أخبرني به
القاضي . فانطلقت بمفردي وخلفي حاجبي حتى بلغت
حجرة المأمور ، فوجدته في هذه المرة أيضاً مع أحد
العمد يحادثه في شبه عنف ، ولم تكن سيما هذا العمدة
تتم عن يسر ولا عن وقار ، ويخيل إليّ أنه من أجلاف
العمد . فالعمدة « كالجرادة » يتخذ شكل الأرض التي
يولد فيها . فالأرض الخضراء تخرج الجراد الأخضر ،
والأرض القحلاء تخرج الجراد الأغبر . وهذا العمدة
الأغبر لا شك من بلاد قاصية فقيرة على حدود المركز
قريبة من الصحارى . وسلمت على المأمور وقلت له باسمًا :

— دايماً مع العمد !

فقال في نبرة تعب :

— نعمل إيه ياسيدى !

ثم أجلسنى وطلب لى القهوة . إذ على الرغم من
اعتكافى عنه وعن ناديه ، فهو يحترمنى ولا يحمل لى
ما يحمله لغيرى من الضغن . فإنى حريص دائماً مع رجال
الإدارة على تنفيذ أوامرى فى مظهر بسيط لا يشعرهم
بغضاضة الأمر . واستأذنى المأمور فى إتمام حديثه مع
العمدة لينتهى من شأنه ويتفرغ لى فأذنت له . فالتفت
إلى الرجل وقال له فى صياح وتهديد :

— طول بالك ، انت يظهر عليك إنك مش عارفنى .

والله لا بد من أنى ...

فقاطعه العمدة مستعظفاً :

— أنا رجل غلبان ...

فضى المأمور فى وعيده :

— انتظر ! إن ما كنت أدخلك البرلمان ، ما ابقاش

أنا مأمور المركز !

— ليه أنا عملت إيه بس تدخلنى البرلمان !

قالها الرجل في توسل وارتياح . فضجكت وعجبت .
والتفت إلى المأمور قائلاً :

— كشوف الانتخابات في جيبه ، ومش عارف
حضرة البرلمان ده يبقى إيه . ويسموهم عمد ، ونشتغل
معهم !!!

(ثم عاد المأمور والتفت إلى الرجل قائلاً :

— تفضل من غير مطرود !

نخرج العمدة ذليلاً كأنه خادم أو مجرم ، وقلت
في نفسي هذه الذلة التي يدوقها في حضرة رجال الإدارة
لن تذهب سدى ، فهو سيذيقها بعينها لأهالى القرية
التي يحكمها ، فإن كأس الإذلال تنتقل من يد الرئيس إلى
الرؤوس في هذا البلد حتى تصل في نهاية الأمر إلى
جوف الشعب المسكين وقد تجرعها دفعة واحدة .

وجلس إلى المأمور يعرف سبب « تشريفى » المركز
بالزيارة ، فأخبرته أنه « الشوق » ، فابتسم المأمور ابتسامة
غير المؤمن بهذا السبب الأفلاطونى ، ولم أصرّ كثيراً

- على كلمتي ، وقلت في هيئة الجدّ :
- بلغك يا حضرة المأمور أن أحد المحضرين ضربه
وحبسوه أثناء تأدية وظيفته ؟
- فأجاب من فوره :
- ما عنديش خبر .
- حصل تبليغ للمركز ؟
- لو كان حصل كنا ضبطناها واقعة وعملنا قضية .
- بالتأكد .
- وأطرقت قليلاً ، وفكر المأمور لحظة ثم قال :
- حدّ بلغ سعادتك بشيء ؟
- لو كان حد بلغني كنت في الحال باشرت التحقيق .
- مؤكّد ؟
- المسألة يظهر أنها مجرد إشاعة .
- فانطلق المأمور يقول :
- هي وحياتك إشاعة ، خارجة من بطن المحكمة
لنشوية سمعة المركز ، وأنت لا يخفّاك أن حضرة القاضي

« طالع فيها » وغرضه يشنع علينا بأى طريقة...
وأراد المأمور أن يسترسل ، فبادرت بإغلاق هذا
الباب حتى لا أزج بنفسى فى هذا الشجار القائم بينهما .
حسبى أنى أفهمت المأمور من طرف خفى أنى لست
بغافل عن الموضوع ، وأنى لا أحجم عن اتخاذ الإجراء
اللازم فيه ، ونهضت فى الحال ، ونهض معى وقلت مازحاً :
— والانتخابات يا حضرة المأمور ... ؟

— عال .

— ماشية بالأصول ؟

فنظر إلى ملياً ، وقال لى فى مزاح كزاحى :

— حانضحك على بعض ؟ ! فيه فى الدنيا انتخابات

بالأصول !!

فضحكت وقلت :

— قصدى بالأصول : مظاهر الأصول .

— إن كان على دى اطمئن .

ثم سكنت قليلاً ، وقال فى قوة وخيلاء :

— تصدق بالله ؟ أنا مأمور مركز بالشرف . أنا
مش مأمور من المأمير اللي انت عارفهم ، أنا لا عمرى
أندخل فى انتخابات ، ولا عمرى أضغط على حرية الأهالى
فى الانتخابات ، ولا عمرى قلت انتخبوا هذا وأسقطوا
هذا . أبداً ، أبداً ، أبداً . أنا مبدئى ترك الناس أحراراً
تنتخب كما تشاء ...

فقاطعت المأمور وأنا لا أملك نفسى من الإعجاب :

— شىء عظيم يا حضرة المأمور ، بس الكلام ده
مش خطر على منصبك ؟ أنت على كده ... أنت
رجل عظيم ...

ففى المأمور يقول :

(— دى دائماً طريقتى فى الانتخابات : الحرية المطلقة
أترك الناس تلتخب على كيفها ، لغاية ماتم عملية
الانتخاب ، وبعدن أقوم بكل بساطة شايل صندوق
الأصوات وأرميه فى التربة ، وأروح واضع مطرحة
الصندوق الى احنا موزيينه على مهلنا .)

— شىء جميل !

قلتها فى شىء من الاستغراب ممزوج بخيبة الأمل .
ولم أشأ أن أعقب على ما سمعت . ومددت يدى مسلماً .
وخرجت وخرج خلفى المأمور يشيعنى إلى الباب الخارجى ،
وإذا بى أرى وأنا أجتاز فناء المركز شرزمة من الخفراء
تأهب للشحن فى « اللوريات » ، ومن بينهم الشيخ
عصفور بأسماله وعوده الأخضر ؛ فالتفت إلى المأمور
أسأله فى ذلك ، فقال وهو يشير يده إلى الرجال :

— أنفارقاعة لحفظ النظام ساعة إعطاء الأصوات .

— والشيخ عصفور ماله ومال الانتخابات ؟

— مواويله تؤثر على عقول الفلاحين !

— يعنى منتدب للدعاية !

فابتسم المأمور ابتسامة المصادق على ملاحظتى ،
وابتسمت أنا أيضاً وأنا أضيف قائلاً :

— حتى الشيخ عصفور شغلته فى السياسة !

فنظر إلى المأمور نظرة ذات معنى ، وقال فى تهديد :

- نعمل إليه بس !

وفي هذه العبارة وهذا التمهيد كل الكفاية في جعلي
أرثي لحال هذا المأمور وأقدر دقة موقفه ومسئوليته أمام
الرؤساء الذين يطلبون إليه نتائج معينة بالذات بكل
الوسائل التي يراها مؤدية إلى الغرض ، فإن أحجم
أو تردد نكلوا به بغير رحمة ولا شفقة .

ومررت في سيري بجوار الشيخ عصفور
فابتدرته :

- البنت ريم راحت فين ؟

فنظر إلى الرجل شزراً ولم يعن بالرد على . فأعدت
عليه الكرة في شيء من الرفق والاستعطاف :

- ريم ياسيدنا الشيخ . خللى نفْسك ويانا في
مسألة البنت ريم !

فهز الرجل رأسه ، ولوح بموده ، وقال مترنماً :

إيش راح ينوبك

من الشكيان ويفيدك

ليه ما حكمتش

على طيرك وهو فى إيدك

فابتسمت وقلت للشيخ عصفور وأنا أشير بأصبعى

إلى المأمور :

— قل لحضرة المأمور ، هو الذى استلم الطير !

٢١ أكتوبر ...

ما كدت هذا الصباح أرشف فنجان القهوة على
مكتبي حتى وردت إشارة تليفونية بوقوع حادثة تسمم
في دائرة المركز : امرأة تناولت من مطلقها فطيرة
فظهرت عليها الأعراض ، وهي تتهمه بسببها للتخلص
من النفقة الشرعية . كلام معقول ، ومسألة تستدعي
التحقيق من غير شك . ولكني من جهة أخرى أعرف
قضايا التسمم ، وما فيها من « قرف » خصوصاً على
الصباح . وأعلم أنني سأنتقل فأجد امرأة عاتة في بركة من
القيء والبراز . وكلما وجهت إليها سؤالاً تلقيت جواباً
لا من الكلمات بل من ال... أغوذ بالله ! ولم أتمالك
وأخرجت منديلي وبصقت فيه . وجعلت أفكر في إحالة
هذه القضية على المساعد . وطلبت به بالفعل فحضر فسلمته
الإشارة ، فر عليها بنظرة سريعة وصاح :

— تسمم ! وأنا عمري حققت قضايا تسمم أو حتى
حضرت تحقيق التسمم !

كلامه هو الآخر معقول . خصوصاً التسم .
حتى أنا القديم المتمرن ، لا أستطيع تحقيق هذه القضايا
إلا ومعى «الاستمارة» المنصوص عنها فى تعليمات النائب
العمومى . هذه الاستمارة فيها أسئلة معينة بالذات لا بد
من سؤالها وتلقى الجواب عنها . وترفق صورة من هذه
الأسئلة والأجوبة مع تقرير وجيز بالقطر ميز الحاوى
« لعينات » التى والبراز لإرسالها للتحليل . هذا مع عدم
نسيان قص أظافر المتهم وقص جيوبه وإرسالها كذلك
داخل أحرار مختومة للتحليل الكيماوى . إذ كثيراً
ما تكون آثار الزرنيخ عالقة بالأظافر والجيوب .
وناديت كاتب التحقيق ، وأمرته بتهيئة اللازم للقيام
وطلبت إليه الاستمارة المذكورة ألقى عليها نظرة
وأندكر ما فيها . فأحضرها وأحضر معها التعليمات
فقرأت ما يلى :

« فقرة ١٤١ — عند إرسال الأحرار إلى القلم الطبى
الشرعى . . . على النيابة أن ترسل فى آن واحد للنائب
(١٣)

العمومى ... الاستمارة الآتية بعد استيفاء جميع الخانات
بالضبط :

(١) تاريخ التبليغ عن الحادثة .

(٢) إسم المصاب وعمره وجنسيته .

(٣) هل كان المصاب فى صحة جيدة قبل

الإصابة ؟

(٤) الأعراض التى لوحظت . كالقيء ، الإسهال

الآلم ، العطش ، آلم الرأس ، الدوار ، فقد قوة الأطراف

التقلصات ، النعاس ، العرق ، التيبس ، حالة الحذقتين ،

النبض ، التنفس !

(٥) هل كان المصاب يشكو من مذاق خاص فى

فه من الطعام ؟

(٦) هل حصل للمصاب تخدير أو تنميل بلسانه

أو أطرافه ؟

(٧) هل حصل للمصاب غيبوبة ؟

(٨) هل حصل له تشنجات أو التواءات بالعضلات ؟

(٩) هل ظهرت الأعراض فجأة؟

(١٠) هل سبق أن حصل للمصاب حالة تشبه هذه؟

(١١) الفترة بين تعاطي المادة المشتبه فيها وأول

ظهور الأعراض؟

ملاحظة — يجب ذكر تواريخ واضحة وساعات معينة عما تقدم أى أنه لا يقال مثلاً بعد اليوم الثانى بثلاث ساعات أو فى يوم (الاثنين) بل يقال مثلاً ابتدأت الأعراض فى الساعة ٤ بعد ظهر يوم ١٦ شهر كذا سنة كذا وأول ما لوحظ منها هو كذا وذلك فى الساعة ٣ مساءً أو صباحاً بالضبط . . . »

شئ جميل جداً !! كل هذه الأسئلة ينبغى أن تطرح على مصاب لا يعرف رأسه من رجليه . والأعجب من ذلك أن نطالبه بأن يخبرنا بأن الأعراض ابتدأت فى الساعة كذا بالضبط . إذ لا ينبغى أن يقال مثلاً يوم (الاثنين) . بل على هذا المصاب المسكين الفارق فى متحصلات جوفه الشاعر بالدوار وفقد قوة الأطراف

والتقلصات والنعاس الخ الخ . باعتراف الاستمارة ...
على هذا الرجل أو هذه المرأة الفلاحة الساذجة التي
لا تحمل في جيبها ساعة وربما لم ترفى حياتها الساعة أن
تقول لنا إن الأعراض لوحظت أول ما لوحظت في
الساعة ٣ والدقيقة بالضبط !!!

النهاية . قننا نصب هذه الأسئلة على رأس المرأة
المسمومة . واصطحبت معي المساعد يشاهد حتى تزول
حجته في المستقبل . غير أننا ما كدنا نتحرك حتى وردت
إشارة تليفونية أخرى قدمها إلى الحاجب فقلت :

— نهار باين من أوله !

وقرأت فإذا هي إخطار من المستشفى الأميرى
ب وفاة قمر الدولة علوان . فصحت : « مات الرجل قبل
أن نعرف منه سر الموضوع » . وطلبت قلماً وأشرت
في الحال على ذيل الإشارة العبارة المألوفة في مثل هذه
الحالة : « نأمر بتشريح الجثة » . وقلت للمساعد أن
يذهب لحضور التشريح وإفادتي بنتيجته بمجرد الفراغ

منه . فضى هو إلى المستشفى . ومضيت أنا إلى منزل
المرأة التي أكلت الفطيرة ؛ وكان الأمر فعلاً كما توقعت ،
وجدت المرأة في صحن الدار وحولها جاراتها لم يتركن
فيما يخيل إلى آنية ولا « حلة » ولا « كروانة » في الحارة
إلا أتين بها ووضعنها تحت فم المصابة المطروحة أرضاً
تتلوى وتحسرج . ونظرت نظرة إلى كاتب التحقيق
فهم منها أن يفتح المحضر ، وتقدمت بين الأواني المملوءة
حتى دنوت من المجنى عليها وسألتها :

— إسمك وعمرك وجنسيته ؟

فلم تجب . ولم يبد على وجهها الباهت المتقلص
العضلات أنها فهمت عني . فأعدت عليها الكرة في
شبه صياح ، فلم يخرج من فمها غير أنين طويل ممزوج
بشروع في قيء جديد . وقد أسرع بعض النسوة إليها
يسندن رأسها المائل بأكفهن ، وهن يتهاמשن :

— أيوه يسيبها في غلبها !

فأجبت مؤمناً على منطقهن وكأني أخاطب نفسي :

— والله كان بودى أتركها في غلبها ، لكن
أصل إليه ؟؟ قلم النائب العموى في انتظار الاستمارة
والقطرميز !

وتشجعت امرأة لسنة بين النسوة وقالت لى :
— « مش ادلعدى » حضرتك طالب تعرف
إسمها ؟ إسمها نبوية .

— نبوية إليه ؟
— لا ما نعرفش غير نبوية . أهى فى الحارة كنا
تقول لها تعالى يا نبوية روحى يا نبوية .

ولكن هذا لا يكفى . ولا بد من كتابة إسمها كاملاً
فتوسلت إلى النسوة أن يساعدننى فى حملها على النطق
دقيقة واحدة . فتكاثرن عليها ورفعن رأسها الذى لا يريد
إلا أن يقع على صدرها وهمسن فى أذنها يرجونها الكلام
وإجابة البك النيابة . وبعد ساعة بالتمام حركت المصابة
شفقتها فاستبشرت النسوة وشجعنها رابات على كتفها :
— أيوه . . . أيوه ردى علينا يا حبيبتى !

فأسرعت أصبح قرب أذنها وقد تصبب العرق منى :

— إسمك؟ إسمك إيه بقى ؟ ...

فأنت وزامت وقالت فى صوت خافت متهدج :

— إسمى ... نبوية .

فكدت أشق ثيابى :

— مفهوم ! نبوية ! كويس خالص ! لكن نبوية

إيه ؟ إسم « أبوك » إيه ! أنا فى عرض « أبوك » ! نبوية

إيه ؟ ولكنى أخاطب وأتوسل إلى شبه جثة . فقد انحدر

رأسها وسقط على صدرها من جديد . ولزمت الصمت

إلا من ذلك الأنين الخافت . وبلغ منى اليأس والضيق ،

فصحت فى النسوة صيحة داوية فأسرعت وأنهضنها مرة

أخرى ومسحن صدغيها بالماء البارد وناجينها بالكلام

العذب إلى أن ظفرنا آخر الأمر باسمها كاملاً . ولكن

بقى فى الاستمارة عشرة أسئلة ! وإذا كان ذكر الإسم

على بساطته قد اقتضى هذا المجهود ، فكيف بالباقي ؟

خصوصاً السؤال الأخير : بيان الفترة بين تعاطى المادة

المشتبه فيها وأول ظهور الأعراض؟ مع وجوب ذكر
تواريخ واضحة وساعات معينة كما تقول الملحوظة!! أى
أن هذه المرأة التى لم تخرج اسمها من بين فكيها إلا بعد
أن كادت تخرج أرواحنا ستقول لنا عن الساعة والدقيقة
بالضبط التى لاحظت فيها ظهور الأعراض أول
ما لاحظت؟ شئ جميل، أنا مجنون أسأل هذه الأسئلة؟
أليس فى عيني نظر؟ ماذا تظن بعقلي هؤلاء النسوة إذا
خالجنى طمع فى أن ألتقى من هذه الطريحة جواباً بالساعة
والدقيقة عن الأعراض والفترة بين تعاطى المادة وظهور
أول... إلى آخر هذا الكلام المطبوع على استمارة
صنعت فوق مكاتب العاصمة فى صفاء وهدوء بال بعيداً
عن مناظر القىء والإسهال!! وأومأت إلى الكاتب أن
«أقفل المحضر» وأفهمته أن المصابة لم يمكن استجوابها
واكتفينا بأخذ «عينات» القىء والبراز وقص أظافر
وجيوب المتهم. ثم عدنا إلى دار النيابة حيث ارتيمت
على مقعدى تعباً.

أغمضت عيني قليلاً ؛ ثم فتحتها على صوت الباب
يفتح وقد دخل منه مساعدى أصفر الوجه . فأفقت من
خمولى فى الحال وابتدرته :

— مالك ؟

— التشریح .

— آه حضرت العملية ، والنتيجة ؟؟

— النتيجة أنى أنا ...

وجلس على كرسى قريب ؛ فحدث بنظرى ملياً
فى وجهه . ففهمت كل شىء . إن هذا الشاب قد حدث
له ما حدث لى يوم حضرت لأول مرة تشریح جثة آدمية .
هذا الشاب الرقيق الذى خرج بالأمس من بين الكتب ؛
(تلك الكتب التى أرتنا وأفهمتنا أن الإنسان شىء عظيم ،
إنه هو محور الكون ، وأنه المصطفى الملحوظ دون بقية
المخلوقات بعناية الخالق الأعظم ، وأنه الكائن النورانى
الروحانى الذى سوف يبعث ؛ هذا الإنسان لم يتح لكثير
من الناس أن يطلعوا على تركيبه من الداخل ؛ فإذا ما اطلع

قبة الزمان

أحدنا على ذلك سرت في نفسه صدمة يختلف تفسيرها
باختلاف مزاج الشخص وطبيعته وثقافته ؛ وإني لن
أنسى أبداً يوم وقفت للمرة الأولى على رأس جثة رجل
أصيب في دماغه بعبار نارى أطلق عن قرب فكسر
الجمجمة وهتك الجدار الأيمن للأذن حتى برز جزء من
جوهر المخ ؛ وحضر الطبيب للتشريح ، فقامت معه
أشاهد ما يفعل ؛ وغادرنا الغيط الذى وقعت فيه الحادثة ،
وانتقلنا إلى دار المجنى عليه ؛ وهى دار قروية متواضعة ،
وجىء بالقتيل يحمله أهله وقد لقوه فى لحاف جديد
« يوشه » ، ومن حوله النسوة بعويلهن وصياجهن
وطينهن يلطخن به وجوههن ، وكان معى مأمور نشيط
أمر رجاله بإخلاء المكان إلا من رجال الحفظ والطبيب
وحلاق الصحة ومعاونيه ، وأتوا « بطشتين » كبيرين
وضعهما تحت « دكة » عريضة من الخشب فى صحن
الدار ؛ ووضع الحلاق ومعاونوه الجثة فوق « الدكة »
وخلعوا ملابس القتيل ، وكانت جديدة احتفالاً بعيد

الفطر؛ إذ وقعت الجريمة في اليوم الأخير من شهر رمضان، كأنما أراد القاتل أن يسرع خشية أن يحل العيد وغريمه على قيد الحياة، وحرصاً منه على أن تكون هدية العيد تلك الرصاصة في رأس القتل، ورغبة منه في أن تتغير نعمة أصوات العيد وأناشيد المتصاعدة من جوف هذه الدار، وأعمل الطبيب المشروط حالاً في رأس القتل وهو يعل على الكاتب:

— ونزعنا الفروة (يقصد فروة الرأس طبعاً).

وعندئذ علا صياح النسوة، وكن قد تسلقن وتسلقن سطح الدار والأسطح المجاورة «المعرشة» بحطب القطن والذرة، وسمعت بين أصواتهن المختلطة صوتاً رفيعاً حاراً مؤثراً أوجع قلبي يصيح:

— يا شجرة و«مضللاتنا» يا بوا!

وتلاه صوت آخر في مثل رفعه ولهيبه وقد امتزج

بنشيج وبكاء مر:

— يا لى كنت خارج بسحورك في بطنك يا به.

وتم نزع الفروة ، ووضع الطيب أصبعه في فتحة
الجرح يسبر غوره ويعرف حدوده ، وأملى الكاتب :
— جرح نارى طوله أربعة سنتيمتر ...

وحاول أن يعثر بأصبعه على الرصاصة فلم يستطع .
فتناول منشاراً من المعدن من حقيته وجعل ينشر
الجمجمة من الجبهة ليفتح الرأس فلم ينجح في نشرها
لصلابتها فأخذ مطرقة صغيرة من بين أدواته وطفق
يدق بها فوق المنشار كأنما يدق على علبة « سردين »
وسمعت إحدى العجائز ذلك ورأت من خوة السطح
ذلك الدق و « الهبد » في رأس رجل العائلة وعميد الدار
فوضعت كفها على خدها وقالت متنهدة :

— إسم الله عليه !

هذه الكلمة هزنتى . ووجدت لوقعها غرابة . إن
تلك المعجوز ما زالت تعتقد أن رجلهن هو رجلهن
بشخصيته وأدميته ، أما أنا فنذ لحظة قد بدأت أشك
في ذلك .

وتم نزع الغطاء أو « القراءة » ، وظهر من تحته
الغلاف الرقيق الذى فوق المخ مباشرة ، فزقه الطبيب
بمشرطه ، وجعل يفحص ما حول الجرح وهو على :
— نزيف دموى شديد بأنسجة المخ ...

وجعل يبحث بأصبعه عن الرصاصة فلم يجد شيئاً .
واستمر فى البحث حول تلك المنطقة القريبة من الجرح
فلم يعثر للرصاصة على أثر . أين ذهبت إذن ؟ وليس
هنالك من فتحة أخرى يظن أن المقذوف خرج منها .
ولم يئأس الطبيب . وقال لى باسمًا : إن المقذوف النارى
يتخذ أحياناً خطوط سير عجيبة فى جسم المصاب وأحياناً
تدخل الرصاصة من البطن فلا يعثر عليها إلا فى الفخذ .
قد يكون هذا معقولاً . ولكن رصاصة تدخل من
الرأس تستخرج من القدم ؟ هذا شغل « حواة »
ولا أصدق أن الرصاصة لها كل هذه القدرة . واستاء
الطبيب أخيراً فصاح :

— وعلى إياه ؟ أدى مخ الراجل بحاله ...

وأخرج بكتا يديه كل ما في الجمجمة من مخ حتى
أخلاها فأصبحت مثل « السلطانية » النظيفة وقسم هذا
المخ أقساماً أربعة أعطى كلا من معاوية قسماً وكلفهم
أن يحشوا عن المقدوف بحثاً جيداً فجعلوا « يلفوضون »
بأصابعهم في هذه المادة التي يعزى إليها كل نبوغ
الإنسانية ، حتى صيروها شبه سائلة كالمهلبية ؟

هذا هو مخ الإنسان !

قلت ذلك همساً لنفسي : وقد بدأ الروع الذي
أخذني أول الأمر يزول عني شيئاً فشيئاً . وتصلبت
أعصابي وهمد إحساسي وتيقظ في نفسي حب استطلاع
ورغبة في أن يفتح أمامي كل هذا الجسم المسجي لأنظر
فيه . ومادمت قد رأيت المخ هكذا فلتر القلب ولتر
الكبد ولتر الأحشاء . لم يعد هذا الرجل في نظري
رجلاً ، إنما هو ساعة حائط كبيرة ممددة أريد أن أفتحها
لأشاهد آلاتها وتروسها وعجلاتها وأجراسها .

ولم يجد الرجال شيئاً كذلك بعد البحث الطويل .

إنه لسوء حظ كما قال الطبيب ؛ ولكننا مطالبون بالنتيجة على أية حال . ها هو ذا القتل ولا بد أن تكون الرصاصة فيه . وشمر الطبيب عن ساعد الجد والضيق وأعمل المشروط في ذلك الجسد ، وأنا من خلفه أشاهد وأقول :

— اقطع ! أشرط ! ... !

وأخذتني حمى غريبة وفقدت كل شعور إنساني فجعلت أقول للطبيب : أرني رثتيه ، أرني أمعائه ، أرني الطحال الخ الخ . ولم يتردد الطبيب . وشرط الصدر حتى أسفل البطن وأخرج القلب ثم الأمعاء وأملى :

— وجدنا القلب سليما ، والأمعاء بها طعام مهضوم ، ولم نعثر مع كل ذلك على شيء . ففكرنا مليا . فاتضح لنا أن الرصاصة قد تكون سقطت من نفس الجرح لاتساعه وثقلها وسقطت بسقوطه على الأرض . وفرغنا من العمل وانصرفنا وأنا أعجب لما حدث في نفسى من انقلاب . أنا الرقيق الحس أرى الجزر والتقطيع بل وأمر به ولا أرتعد ! ثم أى خيبة أمل !

لقد كنت أحسب الإنسان أعظم من ذلك ! كلا ، لا ينبغي
أن نرى أنفسنا من الداخل . إن صورة ما رأيت لا يمكن
أن تزول من مخيلتي . ولا ريب أن تلك المناظر قد
أحدثت في نفس مساعدى أحداثاً . وأردت أن أسأله
في ذلك . ولكن الباب فتح وظهر حاجبي ومعه إشارة

تليفونية فقلت :

— اللهم خيراً !

وتناولت الإشارة . وما كدت ألقى عليها نظرة

حتى صحت :

— البنت ريم ؟ .. !

فأسرع مساعدى متلهفاً :

— ما لها ؟

— وجدوا جثتها في الرياح قبلي البلد ؟

— وماتت ؟

— قلت لك وجدوا جثتها ، خذ اقرأ الإشارة !

فأخذ المساعد الورقة وجعل يقرأ بعينه حتى وصل

إلى آخر عبارة وهى : « ويحتمل أن يكون سبب الوفاة اسفكسيا الفرق » وقفت عيناه عليها لحظة من التأثر ، وكنت أنا أشد منه حزناً على انطفاء حياة هذا الشيء الجميل بهذه السرعة .

وأطرقت قليلاً أفكر فى سوء حظنا ، لا من حيث العمل ، ولا لأن ريم مفتاح من مفاتيح القضية ؛ بل لأنها كانت صورة بديعة هزت نفوسنا جميعاً عاقلنا ومجنوننا ، ومخلوقاً حلواً بمنحنا أويقات حلوة ولحظات مشرقة ، ونسيماً عليلاً هب على صحراء حياتنا العاطفية المجذبة فى هذا الريف القفر .

واستيقظت من تفكيرى ، ورفعت رأسى ومددت يدى إلى مساعدى أسترده الإشارة وأخط عليها العبارة المألوفة : « نأمر بتشريح الجثة » ، ونجأة تنبهت إلى فظاعة هذه العبارة ، نعم لأول مرة أجدها فظيعة ، طالما شرحنا جثثاً ، فليكن ، وإنى لعلى استعداد لتشريح نصف أهالى هذه البلدة ، أما هذه الفتاة ... أما هذا الجمال فحرام أن

نمزه لتري ما بداخله ، ولمح مساعدى نص الإشارة
بنظره الحاد فصاح :

— أظن ناوى تقول لى احضر التشرىح !

— ومين غير حضرتك ؟ !

— مستحيل ، أنا أولاً كفاية على تشرىح الصبح !
حرام ! أقعد طول النهار أشاهد فتح جثث ! أنا مساعد
نيابة مش مساعد حانوتى ! ثانياً البنت دى بنوع
خصوصى ...

فتأملت قوله ، وعذرتة . وأطرقت لحظة ثم قلت :
— لك حق ، ريم بنوع خصوصى ! من له قلب
يحضر .. أنا لو دفعولى عشرين جنيهاً .. ! هات الإشارة
نشطب على التشرىح ونأمر بالدفن ونخلص ... !

والواقع أن فى أيدينا أن نفعل ذلك بدون أن نتعرض
للنقد والمسئولية ، فالطبيب الذى كشف عن الجثة عقب
استخراجها من النهر قرر أن الوفاة من اسفكسيا الغرق ،
أى أنه لم يجد آثاراً مشتبهاً فيها تدل على أن الوفاة جنائية ،

فأجرا التشريح في هذه الحالة دقة لا مبرر لها ، آه لرجال
الفقه والقانون أصحاب الغرض ! إنهم يستطيعون أن
يتصرفوا على كل وجه تصرفاً منطقياً مقبولاً ! وما كدت
أمسك بالقلم لأشطب الأمر السابق حتى سمعنا صياحاً في
الطريق ، فقمنا إلى النافذة ، فإذا بنا نرى الشيخ عصفور
يجرى في الطريق ، عارى الرأس بدون عوده الأخضر ،
والصبية والغلمان ، وجمع من الأهالي خلفه وهو يصيح
كالمجنون :

ورمش عينها يا ناس

يفرش على الميّه

واحد يياض شفتشى

والثانية بلطيه

والتالته من بدعها

غرّقها في الميّه ...

وصار يردد ذلك بصوت تارة كالعويل وتارة كالزئير ،
وتارة في حركات كحركات خطباء المساجد وهو يعيش

أحياناً ويرقص أحياناً ويجرى في كل جهة حتى اختفى
عن أنظارنا ، فلبثنا عند النافذة صامتين مأخوذين ؛ ثم
انتبهنا بعد لحظة وعدنا حيث كنا من الحجرة ونحن
نقول لمن يخاطب نفسه :

— مسكين !

وعدت إلى الإشارة ، وأمسكت بالقلم من جديد ،
ولكن الشك والقلق خالجانى ..

— سمعته لما قال : « غرقها في الميه » ! من اللى

غرقها ؟ !

فقال المساعد :

— دى « هالوسة » مجانين ! حانفتح تحقيق بناء

على « خطرقة » رجل مخبول فى الشارع ؟ ! أظن

الأحسن ندفن البنت وننتهى !

فحاج قوله ترددى ، وضغطت على القلم ضغط العزم

والاقتناع وخططت أمر الدفن وأنا أقول :

— صدقت ، أنا حتى نفسى انصدت عن القضية

وأصحابها !!

٢٢ أكتوبر . . .

استيقظت اليوم متأخراً . فقد سهرت أكثر الليل
في التهام الأوراق المتأخرة . إذ بعد أسبوع تبدأ السنة
القضائية الجديدة . ومعنى هذا أنه لا ينبغي أن تبقى
عندى قضية واحدة لم يتم التصرف فيها من قضايا العام
المنصرم . ومعنى هذا أيضاً أنه يجب أن أحبس نفسى
طول هذا الأسبوع حتى أنظر فى المتأخر من أكداس
« الشكاوى » التى فاضت بها خزائنى . . . آه من هذه
الشكاوى ! إنها أكثر عدداً من ذلك « البق » الزاحف
جيوشاً على حائط دار النيابة الرطب المتهدم ! يخيل إلى أن
الشكاوى لا تنزل على رأسى كالوابل إلا أيام الأسواق ؛
كأن الفلاح إنما يخرج إلى سوق الخيس من كل أسبوع
يبيع كيلة ذرة ليشتري قليلاً من السكر والشاى ويملاً
زجاجة « السيرج » ويستكتب أحد الكتبة العمومية
« بلاغاً » أو « عريضة » ضد مأذون الناحية أو العمدة
أو وكيل شيخ الحفر . ولعل هذا أصبح بنداً ثابتاً فى

ميزانية كل خارج إلى السوق من هؤلاء الفلاحين .
لست أدري لذلك من سبب . أهو الظلم حقاً ! أم هو
داء الشكوى استوطن دم الفلاح على مدى أحقاب من
الجور مرت به حقيقة ! على أى حال ما ذنبى أنا أجرع
ما فى هذه الأوراق من سخف . يظهر أن حضور
جلسات المحاكم وضبط قضايا التلبس فى النهار ، وقيد
وارد الجنح والمخالفات فى المساء ، والانتقال لتحقيق
وقائع الجنايات بالليل ، كل هذا لا يكفى وكيل النيابة
فى الأرياف ، فهو ما زال يجد وقتاً يتنفس فيه . . .
فلتسد عليه إذن مسالك الهواء بأكوام الأوراق التافهة
الآتية من المركز باسم « الشكاوى » و « العوارض »
و « الأحوال » . ومعنى هذا أيضاً أنى أنا الشخص
الضعيف الجسم والبنية الدقيق الحس والشعور الذى
يتوق إلى نصف الساعة يفرغ فيها إلى مطالعة كتاب
جميل ، ينبغى لى أن أقرأ أيضاً ما جرى بين « ست الدار »
وجارتها « قطايف » من تبادل « الرده » والسباب

ان
الحقيقة
هي
الصحة

وما تلقاه المركز من بلاغات فقد الأختام و « محاضر »
البحث الجارى عن جحش هرب من أمام الباب ،
وإصابة قدم طفل داس على قطعة زجاج ، وسقوط فرع
جھيزة على رأس كبش الحاج هباب ! إني والله لأعذر
ذلك النائب فى الصعيد الذى قيل إنه كان يعبر النيل فى
قارب للوصول إلى مقر عمله وكان معه حمل من هذه
« الشكاوى » حار فى أمره ، فأوماً إلى صاحب القارب ،
فقال بقاربه على أحد جنبيه ميلاً أسقط « الشكاوى »
فى الماء ! ويزيد فى بلائى أكثر من هذا إلحاح عبدالمقصود
أفندى رئيس القلم الجنائى . فهو المنوط بإرسال
« كشوف » القضايا فى مواعيدها إلى النائب العام
ووزارة الحفانية . هذا الرجل لا أرى له عملاً عندى غير
التنقل بين الحجرات حاملاً فى يده ورقة يأمر هنا وينهى
هناك . حتى عملية « التنفيذ » التى من نصيبه قد ألقى
بعبئها على غيره من مرؤوسيه واكتفى هو « بمهمة »
الصياح فى الكتبة والحجاب . وهو أول من ينصرف

من الموظفين واضعا على طرف أنفه عويناته الذهبية ،
يرسل من خلالها نظرات صريحة إلى المجتمعين في أروقة
دار النيابة من وكلاء المحامين وأرباب القضايا كأنما
يستحشهم على الوقوف له . ولا حديث عنده إلا ذكر
علاقته وصلاته بكبار الموظفين ، يقول ذلك في زهو
وانتفاخ . ولطالما طلبت إليه حسابا عن عمله فيجيبني دائما :
— أنا والله الحمد رجل لا أميل إلى الأبهة ولا إلى
الفخفخة !

ترانى سألته في ذلك ؟ لم يحدث قط . يخيل إلى أن
من الناس من يلقي الكلمة يدفع بها عن نفسه فإذا فيها
الاتهام الصارخ . ولعل كل متهم يحمل في طيات كلامه
دليل إجرامه ، كما يحمل المريض في دمه جراثيم دائه !
لابد إذن من العمل المضني حتى تختتم السنة القضائية
على خير . وقد أمرت بإغلاق أبوابي على حتى أنفرد لهذه
الملفات أتصرف فيها باليمين وبالشمال ، ومضيت أعمل
وأنا أقول : « خد من التل يخل » ! ولكن الذي وضع

هذا المثل كان يقصد بالتل النقود والذهب . أما أوراق
« الشكاوى » فهي تل دائم النمو ، لا يختل ولا يزول .

وهل تنقطع للإنسان « شكوى » على هذه الأرض
ما دام هو إنساناً ؟ ! ونسيت نفسى فى العمل ، فلم أسمع
طريقة خفيفة قيل إنها وقعت على الباب . ولكنى رأيت
رجلاً أتيقاً فى وسط الحجرة يتسم لى وخلفه حاجب
يحمل حقيبتين . عجباً ! هذا زميلى وكيل نيابة طنطا !
ماذا أتى به ؟ وما هذه الحقائق ؟ ولم يترك لى زميلى وقتاً
للتساؤل . فقد أشار إلى حاجبه أن يضع الحقيبتين على
الأرض وينصرف . وما إن صرنا وحدنا حتى جثا على
قدميه أمامى فى حركة تمثيلية وقال :

— أنا وقعت من السما وأنت تلقفتنى !

فنظرت إلى يدى الهزيلتين ثم إلى جسمه الممتلئ .

— أنا تلقفتك ؟ ونزلت « صاغ » سليم !

— اسمع ! الموضوع جد . أنت رجل معروف بيننا

جميعاً أنك صاحب همة ومروءة و ...

هنا لعب في «عبي الفار» ! وأدركت أن هذا الزميل
قد ترك مقر عمله طغطا في هذا الوقت العصيب وقت
مولد السيد البدوي وما يتبعه من ازدحام المدينة بأفواج
الوافدين وكثرة الحوادث والوقائع التي تصحب عادة
كل مولد وكل ازدحام . ترك ذلك وأتى إلى يطلب
ولا شك إلى همتي ومروءتي معونة كبرى ! ترى مانوع
هذه المعونة ؟ وخامرني قلق ، وأردت أن أعرف سريعا
ما يريد مني حتى اطمئن فقلت :

— أنا في خدمتك !

فما كاد يسمع هذه الكلمة المشجعة حتى قام إلى
رأسي يقبله ويقول في صوت كصوت « الشحاذين » :

— ربنا يخليك ويبقيك ويعد في عمرك و...

ثم تركني وأسرع إلى حقائبه وقال لي :

— تسمع ؟

فقلت له وقد حمدت له في نفسي ذوقه ومراعاته

اللياقة في الزيارة :

— والله ما كان فيه لزوم تكلف نفسك هدية .
وفتح إحدى الحقيبتين وأنا أتوقع أن أرى فيها على
الأقل حمصا من حمص السيد البدوي وفي الأخرى
حلاوة المولد . . . ولكنه أخرج أحمالا من أوراق
« الشكاوى » ووضعها على مكنتي وهو يقول في تواضع :
— هديتنا على قدنا :

فنظرت إلى الأوراق في روع وتمتمت :
— أعوذ بالله !

وجعل هذا الضيف يخرج الأكداس تلو
الأكداس وهو يقول :
— النبي قبل الهدية !

فلم أجد ما أقول لهذا الإنسان الذي يصر على أن
يسمى هذه « السخرة » هدية ، ولعنت في نفسي قولهم
إن « النيابة لا تتجزأ » هذا المبدأ الذي نسير عليه ؛ وهذا
النظام الذي يفرض التضامن بين كل أعضاء النيابة ،
ويعطى الحق لو كيل نيابة أسوان أن يتصرف في قضايا

وكيل نيابة الاسكندرية دون أن يبطل تصرفه اختصاص
مكاني أو زمني . لعنت ذلك ولعنت الضيف ولعنت
نفسى إذ أن لى حقيقة من سوء حظى صيتاً بين زملائى
بأنى من أصحاب الهمم خصوصاً فى الشكاوى الإدارية
وسرعة التصرف فيها . وقد نقل عنى الكثير من إخوانى
أعضاء النيابة طريقتى فى قراءة الشكاوى . فهم يقولون
إنى أقرأ الشكاوى من آخرها لامن أولها . وهذا صحيح
مفاننا لست مجنوناً حتى أقرأ الأوراق من أولها كما يقرأ
الناس والعقلاء ! لو فعلت ذلك لما انتهيت . ولكنى
أضرب صفحاً عن الديباجة وما فيها من « أنتم يا ملاذ
العدل ويا نصير الحق ويا مبيد دولة الظلم ويا ماحق ...
الخ الخ » وأنظر فى الحال إلى السطر الأخير ففيه عادة لب
الموضوع . وهذا اللب أيضاً قلما أجده لباً ، وكثيراً
ما يجرى فيه قلمى بالكنس أى « بالحفظ » فى سرعة
وجرأة وهمة أطمعت فى الزملاء الموروطنين الغارقين فى
بحار هذا « الواغش » ، ولكنى اليوم آخر من يعين

لعل
الحق
بالعذر

الناس . إني أنا نفسى فى حاجة إلى المعونة . وإن هبوط
هذا « الضيف » على كما تهبط المصيبة لأمر شاق على
النفس . ولم أتمالك ، وتجهمت للشكاوى الخارجة من
الحقائب وقلت فى سخرية المغيظ :

— يا سلام ، يا سلام على حمص المولد ! حاجة تشرح

القلب صحيح !

فقال الضيف وهو ينفذ يديه من آخر ملف :

— كان غرضى أجيب لك شوية حلاوة ...

فقاطعته صائحاً مرتاعاً :

— من الصنف ده ؟ !

فاستمر فى قوله باسمًا :

— لكن والله غاب عن فكرى فى آخر لحظة ...

— الحمد لله ! جات سليمة ! ..

فضحك الزميل المحترم . وجاءت القهوة فشرب

هنيئًا . ثم قام فدار دورة فى الحجرة واقترب من

النافذة كمادته التى أعرفها عنه وأطلق بصره فيما

حولنا من منازل قليلة وغمز بعينه .

— في البيت ده بنت حلوة !

فبادرت إليه وجذبتة من ذراعه بعيداً وأنا أقول له :

— كنت فاكرك عقلت وبطلت الهلس !

فقال باسمًا وهو يعود إلى الحجرة ويجلس على مقعد :

— أبطل ازاي ؟ « البصبصة » في دمي !

وجعل يذكرني بأيام « ديروط » حيث كنا نعمل

معاً في نياتها . وطلب مني سيجارة طفق يدخنها ويقول :

— فاكر في ديروط لما كنا نقف في الشبايبك

نبحث بعيننا فوق الأسطح عن قميص حريمي مشغول

« بالتنتنة » لأجل بس نعلمن على وجود صنف النسوان

في البلد !

الواقع أنها بلاد قريبة من الفطرة والوحشية ! هذا

الوجه القبلي من مصر شيء خفيف لسا كن الوجه البحري

إن المرأة هناك شبح لا يرى ولا ينبغي أن يرى . وهي

مخلوق جاف لا فرق بينها هناك وبين الرجل . كلاهما

صبيحة
في الإبريق

شئ لا أثر للرقعة فيه . وكلاهما في الجسم والطبع والروح
كتلك الأرض السوداء التي يعيشان عليها وقد جف
عنها النيل في زمن التحريق ! آدميون قد جف عن
تركيبهم ذلك الماء الذي فيه سر امتياز الآدميين .

ونفخ صاحبي الدخان من أنفه وفه ثم استطرد :
— لعنة الله على دى بلد ! أنا أراهن أن تسعة
أعشار أهالي ديروط لو تكشف رءوسهم تلقى معمول
لهم جميعاً عمليات « طرَبنة » من ضربهم في بعض النبايت
فصادقت برأسى على قوله ثم زدت :

— وأبنوب ؟

— ألعن !

قالها في إشارة من يده أضحكتنى وذكرتنى بشيء
قرأته عن هذه البلدة : إحصائية صدرت في أوروبا
أو أمريكا (لست أذكر على التحقيق) غرضها بيان
الإجرام في العالم : ورد فيها أن « شيكاجو » أكثر
بلاد الأرض في عدد جرائمها ، وتليها مباشرة « أبنوب »

وبعدهما بقية مدن العالم الشهيرة . وقد حسبت وقتئذ
أن « أنبوب » هذه مدينة في أمريكا . لولا ملحوظة في
هامش الإحصائية ذكرت أنها من بلاد الوجه القبلي
بالقطر المصرى . دهشت عند ذلك أن تكون لهذه البلدة
الصغيرة هذا المقام العظيم بين مدن الدنيا الشهيرة ، وإن
كان هذا المقام في عالم الإجرام !! « شيكاغو »
و « أنبوب » قطبا الغريزة السفلى على هذه الأرض .
الأولى إجرام الحضارة ! والثانية إجرام البداوة ! كل
له طابعه ومميزاته : إجرام الحضارة قد ارتدى هو أيضاً
ثوب الحضارة بأسلحتها وأغراضها وأسبابها ! هنالك
الجريمة المتحضرة تخرج في سيارتها المصفحة حاملة
« المسدسات » و « المتراليوزات » و « المفرقات »
لتهجم على أضخم « البنوك » ويوت المال ثم تعود إلى
مكمنها بثروات طائلة من الجنيهاً ! وهنا الجريمة الفطرية
تخرج متدثرة في عباءتها حاملة هراوتها أو فأسها
أو بندقيتها لتسفك دم رجل ضعيف انتقاماً لعرض أهين

في نظر التقاليد والعادات . هنالك الثروة والمال ، وهنا
التقاليد والعادات . هذا هو الفرق بين الحضارة والفطرة
بين ما يشغل بال الرجل المتحضر وما يشغل بال الرجل
المتأخر ! نعم إن الشر هو دائماً الشر . ولكن الشر الناتج
عن سبب كبير لأجدر بالتقدير من شر نشأ عن سبب
تافه حقير ! إن الحضارة العظيمة لا تزيل الشر ولا تمحو
الجريمة ، ولكنها توجد الشر العظيم والجريمة العظيمة !
والتفت إلى زميلي المطرق وقلت له :

— أنا روحي طلعت خلاص ! زهقت من حاجة

اسمها أرياف ! زهقت من أصناف « اللبد » !

— إزهق على كيفك !

— أنا اشتقت لمصر ! نسيت شكل عاصمة بلادى

أحب ياناس أغير نوع الجريمة ، وأشتغل مع مجرمين

لابسين سترة وبنطلون ؟

— حركة التنقلات فى نوفمبر .

— أعلن على الدور أنتقل لمصر .

— النقل لمصر مش بالدور يا حبيبي عندك واسطة ؟

— لا .

— حاتميش وتموت في الأرياف .

— وإخواننا اللي قاعدين متمتعين في مصر بقى

لهم سنين ؟

— تشملهم كذلك حركة التنقلات لكن على الوجه

المفهوم وعلى الطريقة المعتادة : وكيل نيابة الموسيقى ينقل

إلى نيابة الأزبكية . ووكيل شبرا إلى نيابة الخليفة . ووكيل

السيدة زينب إلى كلية مصر ؛ يعنى تنقلات مع مراعاة

عدم خروجهم من « الجنة » أى العاصمة . ومع ذلك تجد

حضراتهم غير راضين . لأن بعضهم يقول لك : « شبرا

يا سلام شبرا بعيدة جدا جدا عن بيتي فى الزمالك ! »

والآخر يقول لك : « إزاي أروح نيابة السيدة ! ؟ حى

ديموقراطى قوى ! ! » أما حضرتك وحضرتى ، فأنت

إن شاء الله من هنا إلى « الفشن » من غير كلام . وأنا من

طنطا إلى « طما » أو « منفلوط » من غير كلام . وإن فتح

واحد منا فبه بالشكوى أو الاحتجاج هبوا فينا : إيه دلع
أعضاء النيا به ده ! تفضلوا روحوا نيا باتكم بلا دلع !!
فأطرقت طويلاً في حزن وغم ؛ ولم أجد في يدي غير
التمسك بالصبر حتى لا أضيف على بلائي بلاء وقلت متهدداً :
— أمرنا الله ! لنا رب ! لكن ده شيء يصد النفس
عن الشغل ...

لفظت ذلك وقد وقعت عيني على أكوام الأوراق
التي لا بد من إنجاز التصرف فيها فأحسست أن رغبتى
في العمل قد فترت . فقال صديق :

— الشغل ... هو آخر شيء يهم أسيادنا الرؤساء
الكبار ! المحسوية أولاً ، ومصلحة العمل أخيراً ،
وكون نفس حضرتك تنسد أو تنفتح للشغل مسألة غير
مفهومة بالمرة ولا مهمة بالمرة عند أسيادنا الكبار !
ونظر الزميل في ساعته ثم نهض سريعاً مستأذناً
فأمسكت به في لهفة ، ففي وجودنا معا وتقليب ذكرياتنا
بعض الراحة والعزاء :

— أقعد ! أنت رايح تتغدى عندى النهارده !
— مستحيل ! نيايتى فاضية ووقت مولد . أرجوك
تسامحنى ...

وشكر لى ومد إلى يده وودعنى بسرعة وهو
يقول مشيراً إلى ملفات الشكاوى التى جاء بها :
— على الله نفسك تنفتح على الكم ورقة الهدية ...
ويبقى لك عندى المرة الجاية الحلاوة .. حلاوة بصحيح :
حمصية وسمسمية وبالجوز واللوز والفسق ...
— طيب رح بقى ، ريقى جرى مقدماً ...

وشيعته باسمًا إلى باب حجرتى حتى اختفى . فرجعت
إلى ما كنت فيه ولكن فى شىء من التثاقل والضيق
والكآبة . وألقيت نظرة أخرى على « الشكاوى » .
ورأيت أن أمضى فى عملى وأن لا أضيع الوقت فى تبرم
لا فائدة منه ، لا يشعر به أحد ولا يراه أحد غير تلك
الحيطان الأربعة التى تحبس روعى وأنفاسى . وأمسكت
بالقلم . وتناولت من الكوم ملفاً وفتحته . وقرأت :

« يا ملاذ العدل .. » فما تمالككت أن ضحككت بصوت مرتفع ضحكة مرة . أنا ملاذ العدل ؟ أين هو العدل ؟
إني لا أعرفه ولم أره . لأن أحداً لم يعطينيه ! إنهم يطلبون إلى أن أنظر في شكوى الناس ولا يتنازلون هم إلى النظر في شكواي وشكوى المئات من زملائي ! وأجريت القلم في الأوراق أوسعها « حفظاً » ! ودخل على عبد المقصود أفندي يحمل ملفات ضخمة فقلت مرتاعاً :
— إيه كل ده ؟

— الجنح الباقية على التصرف ..

ثم التفت خلفه ونادى الحاجب :

— هات الجنايات يا جدع !

ونظر إلى قائلاً :

— حانعمل إيه في الجنايات الباقية ...

ووضع أمامي ملفات قرأت على غلاف أحدها قضية « قر الدولة علوان » . فتذكرت أن الفاعل في هذه القضية لم يعرف . لم يعرف ، طبعاً لم يعرف ولن يعرف

وكيف يراد منا أن نعرف متهما في قضية غامضة كهذه القضية وكل من المأمور والبوليس « ملبوخ » من رأسه إلى قدمه في تزييف الانتخابات ، وأنا « ملبوخ » في قراءة شكاوى وجنح ومخالفات وحضور جلسات ! لو أن لدينا « بوليس سرى » على النظام الحديث ، و « قاضى تحقيق » ينقطع لقضايا الجنايات كما هو الحال في أوروبا والعالم المتحضر ! إنهم هناك ينظرون إلى أرواح الناس بعين الجد . أما هنا فلا أحد يأخذ ذلك على سبيل الجد . وإن الأموال لتنفق هنا بسخاء في التافه من الأمور ، وأما إذا طلبت لأقامة العدل أو تحسين حال الشعب فإنها تصبح عزيمة شحيحة تقبض عليها الأكف المرتجفة كأنها ستلقى في البحر هباء . ذلك أن « العدل » و « الشعب » . . . الخ الخ . كلمات لم يزل معناها غامضاً عن العقول في هذا البلد . كلمات كل مهمتها أن تكتب على الورق وتلقى في الخطب كغيرها من الألفاظ والصفات المعنوية التي لا يحس لها وجود حقيقى . فلماذا

ينتظر منى أنا أن آخذ على سبيل الجسد روح « سى
 قرر الدولة علوان » ؟ ! إن هذا المجنى عليه قد مات وانتهى
 مثل غيره من مئات المجنى عليهم فى هذا المركز والمركز
 الأخرى فى القطر ، ذهب دمهم جميعاً أرخص من المداد
 الذى حبرت به محاضر قضاياهم ، وانتهى ذكرهم عندنا
 « رسمياً » بذلك الإجراء الأخير البسيط : « تحفظ القضية
 لعدم معرفة الفاعل ويكتب للمركز باستمرار البحث
 والتحرى » فيجيب المركز بعبارة مألوفة محفوفة يحررها
 كاتب الضبط فى حركة آلية وهو يقضم « شرش جزر » :
 « جارين البحث والتحرى . . » وهى كلمة الوداع التى
 تقبر بها القضية نهائياً . لقد كان فى قضية قرر الدولة « قرر »
 مضىء ميز فى أعيننا هذه القضية عن غيرها وجبب إلينا
 العمل والجهد فى سبيلها . ولقد اختفى هذا القمر إلى الأبد
 وترك القضية ومحققها فى الظلام ! بل إنه بذها به قد
 زال عنها ذلك الاعتبار الخاص فأصبحت قضية عادية
 كمئات القضايا التى لا يعيننا من أمر أشخاصها شئ .

وللقضية أى لذلك « الملف » المادى من الورق المكتوب
« شخصية » قائمة بذاتها فى نظر رجال العدل . وإن
ما يعنى جهاتنا الرئيسية هو ذلك « الملف » وسرعة
التصرف فيه . وإنه لن يعيننا شئ إذا حفظنا القضية ،
ولكن العيب كل العيب أن تظل هذه القضية باقية قيد
التصرف ويثبت ذلك فى « الكشف » المرسلة إلى
النائب العام والوزارة آخر السنة القضائية . أى عار
عند ذلك وأى إهمال ينسبان إلى وكيل النيابة ؟! وأى
مكاتبات مستعجلة تسقط على رأسه من جميع الجهات عن
سبب بقاء هذه القضية قيد التصرف ؟ فإذا أجاب بأنه
لم يستوف بعد أبحاثه فيها للوصول إلى معرفة الفاعل
وأنه مواصل بحثه ومصر عليه لا يعتبر ذلك عذراً ،
وسفهه زملاؤه وحسبوه « غشياً » ونصحوه بأن
« يحفظ » القضية « مؤقتاً » حتى تعتبر « متصرفاً فيها »
فالجهات العليا يهملها ويطمئنها « التصرف » فى القضايا
أى « نفى » اليد والفراغ منها على أى صورة وعلى

أى وجه ، حتى تستطيع تلك الجهات أن تدون
في الإحصائيات : « وقع في القطر هذا العام عدد كذا
جنايات ثم التصرف في عدد كذا منها ... الخ » . وكلما
كان عدد القضايا التي تم فيها التصرف كبيراً كان ذلك
دليلاً ناصعاً على نشاط رجال العدل وغيرتهم على استتباب
الأمن وحسن سير الدولاب الحكومى !!

وأشار عبد المقصود أفندى إلى الملفات وقال :

— قبل كل شيء ياسعادة البك تصرف لنا في
الكم جناية الباقيين لأجل أسد كشف الجنايات
وأصدره للباشا النائب والوزارة ...

— بس كده ؟ حاضر !

ونغمست القلم في المداد وتناولت القضية الأولى
وهي قضية « قمر الدولة » :

— طالب تصرف ، خد تصرف !

ثم كتبت في ذيل المحضر الإشارة المهودة :

« تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل ... الخ الخ »

وسحبت « الجنائيات » الأخرى وفعلت بها مثل
ذلك وناولتها رئيس القلم الجنائى وأنا أقول له فى نبرة
خرجت ساخرة مريرة على الرغم منى :
— مبسوط ! أدخنا خلاص سددنا كشف
الجنائيات !

اتمى

كتب توفيق الحكيم

محمد : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ومطبعة المعارف
عام ١٩٣٦)

شهر زاد : (مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤ . وترجم ونشر
في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو
الأكاديمية الفرنسية)

أهل الكهف : (مطبعة مصر ومطبعة الاعتماد عام ١٩٣٣)

عودة الروح : (مطبعة الرغائب عام ١٩٣٣ . وترجم ونشر بالروسية
[في جزئين] في ليننجراد عام ١٩٣٥ . وبالفرنسية في باريس
عام ١٩٣٧)

أهل الفن : (مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤)

يوميات نائب : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)

تظهر قريباً جداً :

مسرحيات توفيق الحكيم

الجزء الأول

» الثاني

»

»

»

وتطلب من طابعها وناسرها حسن محمد وأخوته
أصحاب مكتبة النهضة المصرية بشارع المداين بالقاهرة

M. (metallurgie) C.N.: construction machines

T: Textiles

R: Raffinerie de pétrole

I.M: Industrie métallurgique

I.A: Industrie alimentaire

Voyageurs

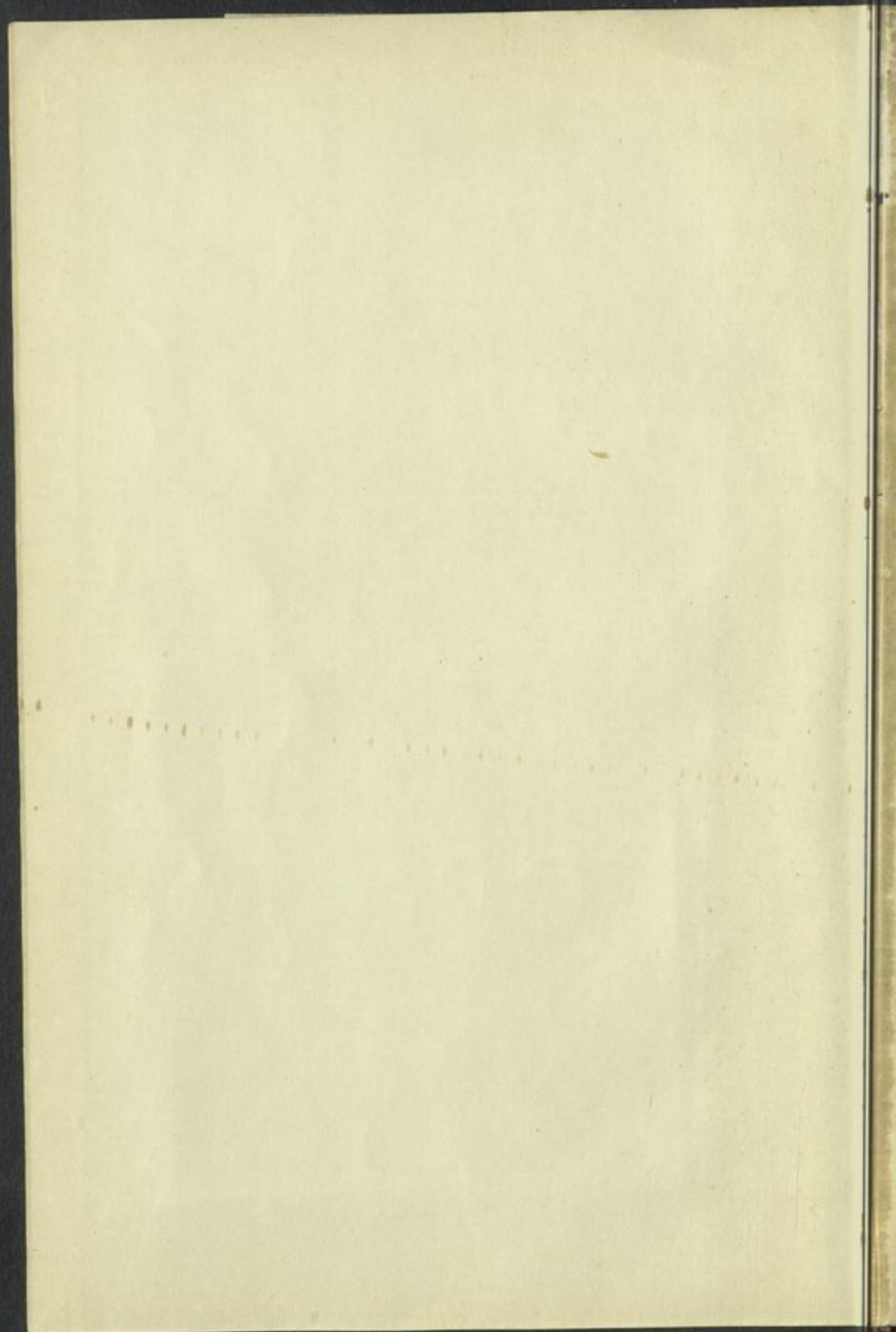
Secrétaires
et cautions

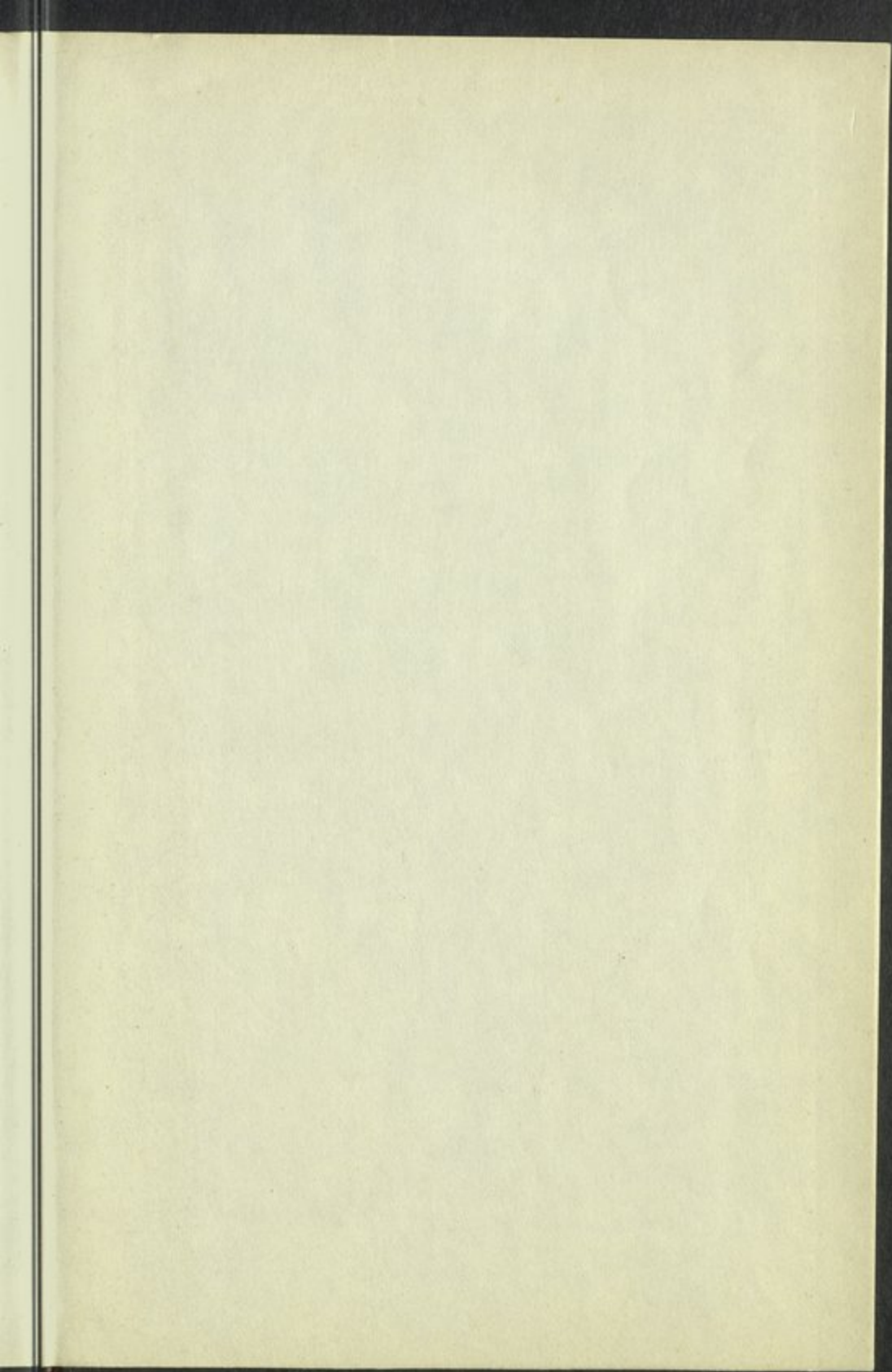
Secrétaires
Voyageurs

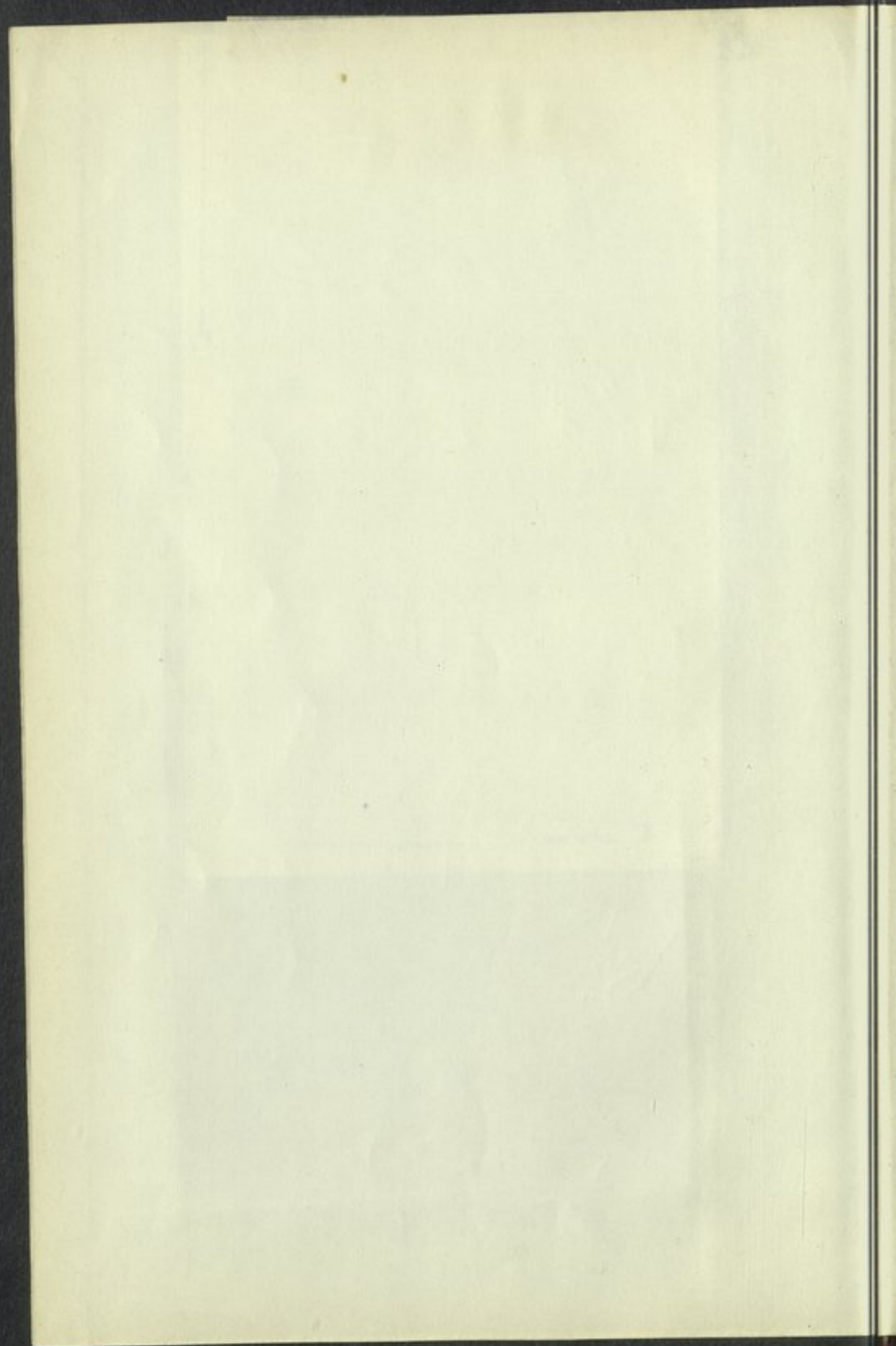
Secr

Hydrocarbures, Lait, Poudre, etc.

Papier.







JAFET LIB.
14 JUN 2005
Circulation Dept. 2

JAFET LIB.
30 JUN 2003
Circulation Dept. 2

JAFET LIB.
9 SEP 2011
Circulation Dept. 2

الحكيم، توفيق،
يوميات نائب في الأرياف

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01037462

